مصر التى ..

روايـة

مصر التـــى .. رواية

كتبها/أسامة على الصادق

.....

الطبعة االرابعة .. نوفمبر ٢٠١٧

الناشر: الكاتب

تصميم الغلاف: طارق الصادق

حقوق الطبع محفوظة للكاتب

oelsadek@gmail.com

موبايل٠١٢٢٧٩٧٠٠٣٢

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٣٢٤٢

بدار الكتب والوثائق الرسمية

الترقيم الدولى : 977-17- 5833-0

## إهـداء إلـى

## مصر وطنـاً

مصر التى فى خاطرى وفى فمى

احبها من كل روحى ودمى

ياليت كل مؤمن يعزها يُحبـها

مثلـــى أنا

قصيدة صوت الوطن للشاعر/

**أحمـد رامي**

**********

## إلى مصر شعبا

لست أدري

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت

ولقدأبصرت أمامى طريقا فمشيت

وسأبقى سائرا إن شئت هذا أم أبيت

كيف جئت كيف أبصرت طريقي

لست أدري

الشاعر إيليا أبو ماضى

## قرية بالريف المصرى

عام ١٩٥٠ وبإحدى قرى محافظة الدقهلية والتى يطلق عليها قرية أبوسيف والتى تجاور مدينة المنصورة عاصمة المحافظة حيث تقع على الجانب الآخر من نهر النيل الرائع الذى يقسم المحافظة إلى قسمين؛ يعيش فى تلك القرية الآلاف من الفلاحين البسطاء الذين يسعون وراء لقمة العيش لهم ولذويهم الذين يمثلون عائلات كثيرة العدد وأمام منزل ريفى متواضع أقيم من الطوب اللبن والمكون من دور واحد تعلوه كميات من الحطب الجاف وبعض قش الأرز لزوم الطهى وإعداد الخبز على الكانون المزود به كل بيت من بيوت الفلاحين نظرا لأهمية وجوده بكل دار للإعاشة يقطن بهذا البيت المتواضع أسرة "عوف".

عوف رجل بسيط رقيق الحال يبلغ من العمر اربعين عاما متزوج من ابنة عمه "سنية" التى تقاربه فى العمر الزمنى لكن هناك فرق كبير بينهما رغم إنهما أبناء عمومة ومتزوجان منذ أكثر من ثمانية عشر عاما، عوف نحيف القوام هادئ الطباع يداوم على

الصلاة محبوبٌ من جميع أبناء القرية لا يتحدث كثيراً رغم أنه يعشق الضحك والفكاهة ودائم الإبتسام، ومن أجل هذا لم تحدث بينه وبين أهل قريته أى مشاكل والتى تنتج عادة من أخطاء اللسان بين الناس.

عوف لا يعمل بالزراعة إلا مضطراً لكن عمله الأساسى تجارة الخضروات، يمتلك عربة كارو صغيرة ذات عجلتين وحماراً يستخدمها لهذا الغرض؛ يقوم بشراء الخضروات من الزراع خاصة نبات "الخس" ثم يقوم بإعداده وتنظيفه من بقايا الحقل ويزيل منه الشوائب والطين العالق به بعد استخراجه منه ثم يقوم بغسله بمياه الترعة ثم يضعه على العربة الصغيرة متجها به كل صباح الى مدينة المنصورة عابرا الكوبرى الواصل بينهما ويسمى بكوبرى "طلخا" ، لقد تمرس الرجل على هذا العمل منذ أن كان شابا يافعا فى مقتبل حياته، كما أنه اختار الأماكن الراقية ليعلن عن بضاعته كى يتجنب الأحياء الشعبية وما يحدث أثناء البيع من فصال فى ثمن ما يعرضه.

ونظرا لجودة بضاعته الطازجة ونظافتها أصبح هدفا لسكان تلك الأحياء، بالإضافة إلى تسامحه مع البعض ممن يتحدثون معه بأسلوب يغلفه الاستهتار البعيد عن الاحترام سواء من الخدم أو من بواب أى عمارة، أدى سلوكه هذا إلى نوع من الألفة والحب بينه

وبينهم، من أجل هذا أقبل عليه الجميع يطلبون بضاعته، إذا تغيب عن الحضور لأى سبب من الأسباب عن قاطنيه فيصيبهم الضيق ويمتنعون عن الشراء ولا يرضون عنه بديل، لقد وثقوا به بعد تجاربهم الكثيرة مع غيره من الباعة سواء بسبب الغش والخداع أو لسوء الحديث معهم، لهذا السبب كان "عوف" تاجر ماهر يعود مجبور الخاطر آخر النهار إلى قريته بما مّن الله عليه من خير ورزق حاملاً معه بقايا أوراق الخس التالفة أو الجافة التى يقوم بنزعها قبل تسليمها إلى المشترى فيصبح هذا التالف طعاما لبعض حيوانات المنزل الأليفة من الماعز والأغنام التى تقوم زوجته بتربيتها للمساعدة على توفير الرزق لأسرتها بالإضافة إلى أنه كان يشترى بقايا الخبز الجاف الرديئ الصنع "السحلة" من بعض التجار بأرخص الاثمان ليطعم بها الطيور الداجنة التى تقوم زوجته بتربيتها.

اما عن زوجته "سنية" فهى على النقيض منه، فقد حباها الله بجمال طبيعى، تمتاز بطول القامة .. ممشوقة الجسد .. بيضاء البشرة .. ذات شعر أسود فاحم مسترسل على كتفيها .. أسنانها بيضاء لامعة .. ذات عيون سوداء واسعة .. من الوهلة الأولى إذا نظرت إليها شعرت بأنك أمام حورية من حور الجنة التى هبطت على الأرض.

عندما تتحدث يخرج من خلال شفتيها صوت رقيق به مِسحة من ضحكة صغيرة لم نكتمل، هذه المواصفات تظهر فى اللحظات القليلة التى تكون فيها هادئة حليمة الخلق؛ أما إذا توترت وهذا يحدث كثيرا فانك تشاهد عكس ما سبق ذكره، فتسمع الصوت المرتفع وتهاجم الشخص الذى أمامها بسبب وبدون سبب والكثير منه بدون سبب ولهذا أصبح الناس وبخاصة النسوة يبتعدن عنها خوفا من لسانها الحاد شديد القسوة فى التعبير كما أنها لا تخجل أن تسب جاراتها بأقذع الشتائم التى تمس العرض والشرف مما يدفع النساء إلى الهرب لدورهن لتحاشى لسانها الفلتان المهين.

أما عن الرجال فلا يعيرونها أى اهتمام ويحدث فى بعض الأحيان أن تسب رجلا دون أى سبب واضح فلا يرد عليها السباب فيزداد حنقها عليه فتمسك به من تلابيب جلبابه وتتشاجر معه بينما يقف الرجل دون حراك لأنه إذا فعل مثلها فهذا معناه أنه تعدى عليها وتطاول على جسدها ولمسها فى أماكن حساسة تعرضه للمساءلة القانونية، والأهم من كل هذا أنها سوف تنشب أظافرها بوجهه ولحمه ولن تتركه إلا مشوها ويصوتها القوى يتجمع الناس حوله وفى نهاية المعركة يلومونه بأنه تعدى على "حُرمة" وما كان يجب عليه فعل هذا بل كان من الواجب عليه انتظار زوجها لتشكوها إليه .. والبعض يضحك من هذا قائلين بأن عوف يحتاج

عون الناس لحمايته منها ومن أفعالها.

كانت الأمور تسير بالزوجين بنظام ومنهج مفهوم دون كتابة أو شهود، فالصوت المرتفع والأمر والنهى للزوجة والتى يخشاها الجميع حتى زوجها عوف خفيض الصوت والذى يقابل بذاءتها بالصبر والهدوء والرصانة والابتسام وكأنها لا تحادثه أو تسبه أو تهينه أمام الناس أو أمام ابنائه وكان معروفا عنه لدى الجميع بأنه يعاملها فى مثل تلك الظروف بعقاب آخر يتمثل فى الهجر والابتعاد عن المنزل عدة أيام تاركا لها المنزل تفعل به ما تشاء ولهذا أصبحت غريبة بين أهلها وبلدتها لسوء أخلاقها فى التعامل مع الآخرين لدرجة أن أشقاءها كانوا يبتعدون عنها ويرجع السبب فى سلوكها هذا لوالدها وهو الشقيق الأصغر لوالد عوف حيث دأب منذ صغرها على تدليلها ومعاملتها معاملة خاصة لما تتمتع به من جمال أخاذ ودفعها هذا إلى الغرور حتى على أشقائها الرجال وهم الأكبر منها سنا وبأن تلحق بهم الإهانة وترفع صوتها عليهم.

رزق الزوجان طوال سنين عشرتهما الزوجية والتى دامت ثمانية عشر عاما بولد وثلاث فتيات وكان التبكير بالولد ثم تلاه الفتيات الثلاث.

سنية حامل فى شهرها السادس تنتظر مولودها الخامس وما زالت عفية قوية تزداد جمالا وروعة وبهاء ومازال لسانها قبيح

الكلمة كريه المعنى وأصبحت منبوذة من أهل القرية لا يتعامل معها أحد ولهذا كانت تحمل منتجاتها من بيض ودواجن وبط وإوز وحمام وأرانب إلى سوق المدينة وتجلس صاغرة لا تستطيع فتح فمها لأنها خارج بلدتها ولن تستطيع أن تقف فى وجه النسوة فى السوق وإلا سيلقنونها درسا لن تنساه كما ستحضر شرطة المرافق وتحملها لنقطة البوليس فى السوق.

ومن أجل هذا وبمعاونة زوجها استطاعت أن تجد لها مكانا بين نساء السوق وهن يعلمن أنها زوجة هذا الرجل الطيب الذى يعاون بعضهن فى كثير من الأحيان بنقل بضاعتهن وحملهن أيضا بواسطة عربته الكارو خاصة أيام فصل الشتاء والأوحال التى تملأ الطرق الريفية غير المعبدة دون الحصول على أجر وقد دفعهن هذا إلى حبه ومحاولة إرضائة بكل الطرق سدادا لمعروفه وخدماته لهن.

الابن الأكبر يُدعى "حامد" ويبلغ من العمر سبعة عشر عاما ويعمل فى الحقول كعامل زراعى وهو مختلف عن أمه فى كثير من طباعها باستثناء وسامته التى ورثها عنها أما باقى شقيقاته فهن على التوالى ..

عزيزة (ثلاثة عشر عاما) .. زينب (عشرة أعوام) .. منيرة (سبعة أعوام).. بعدها توقفت الأم عن الإنجاب سواء للراحة الطبيعية أو من حالات "السقط" أثناء الحمل التى تحدث لبعض النساء

وبالأخص حين القيام بالأعمال التى تحتاج للقوة والتى يقمن بها فى بعض الأحيان مع قلة الوعى الصحى لديهن.

عاد عوف من مشواره اليومى ليجد زوجته تعانى الآم المخاض وحضرت لهذا الغرض شقيقتها الصغرى وبرفقتها أم زكى الداية وتمت عملية الوضع بعد أن نالهن الكثير من لسانها البذيىء أثناء وضع طفلها الخامس.

وصلت بشرى المولود إلى عوف، أنها أنثى وأسعده هذا فهو بطبعه الهادئ المتدين لا يهتم بالمقارنة بين فتى وفتاة، بل على عكس بعض الناس بريف مصر فى ذلك الزمان بل وحتى الآن فكلما زاد الجهل والتخلف تمسكنا بمثل تلك البدع والخرافات؛ زوجته هى الأخرى لم تكن تهتم بتلك الخرافة وقد يكون هذا نابعا من شعورها بالتفوق والقوة.

فى اليوم السابع أى "السبوع" والجميع يحتفل بهذه المناسبة والأم تجلس كالبدر المنير تحمل طفلتها، طلب منها البعض على استحياء أن تسمى الفتاة ولكنها رفضت وقالت انا جبتها وأبوها عليه يسميها، أسعده هذا ومازال ينظر إلى ابنته قائلاً للمدعوين:

ـ انا شاعر أن البنت دى حتكون جدم سعد علينا وعلى نفسها حيكون لها مستجبل، ربنا منور الطريج جدامى وحاجه فى دماغى بتجول ياعوف بنتك دى حتكون لها مستجبل وحظ، علشان كده

حتكون مسعده وسعيده وحاسميها "سعاد"

دارت الأيام بالأسرة .. الكل يعمل والفتيات يخرجن للحقول للعمل فى نقاوة دودة ورق القطن أو جمع المحصول وتوزيع السماد البلدى "السباخ" ونظافة الأرض من الحشائش الضارة؛ لم يكن هناك عمل ما إلا وتقوم الفتيات به، لم تكن هناك مشاكل أثناء قيامهن بالعمل سوى حضور الام للإشراف عليهن ومتابعتهن ويكون صاحب العمل حظه اسود من قرون الخروب لو تهاون فى إعطاء أى من بناتها حقها أو تعدى على إحداهن بالسب أو الضرب فهذا معناه أنها سوف "تجرسه" وهى كلمة تعنى فى الريف الفضيحة العامة والتى سوف تهين كرامته ولهذا لم يكن الناس يفتعلون أى مشاكل مع بناتها وخاصة أن البنات كن مثل والدهن عوف فى الصمت المطبق والعمل بإخلاص وقد يكون الدافع لهذا قانون الوراثة أو أن الأم لم تعطِ لهن أى فرصة للحديث، فهى دائما ترغى وتزبد حتى أثناء تناول طعامها وفى بعض الحالات أثناء وجودها ببيت الراحة "دورة المياه" حيث تتكلم ثائرة حانقة على أسرتها وعلى الجيران وتسبهم فردا فردا واصفة إياهم بأبشع الكلمات وقد يكون الدافع أيضا لصمت الفتيات ما لاحظنه من أن سياسة الأم أبعدت الناس عنهن وفى كثير من المواقف كان الناس غير راغبين فى استئجار الفتيات بسبب سوء خلق الأم؛ كل تلك الأمور دفعت

الفتيات إلى احترام الآخرين والاحتراز من السير على خطوات الأم التى ثبت فشلها وعقمها بأن ابتعد الجميع عنهن.

واجهت عوف وزوجته مشكلة زواج ابنتهم عزيزة رغم أنها تنعم بمسحة من الجمال إلا أن الشباب عزف عن التقدم إليها وكان مبعثه الخوف من نسب أمها سنية، فكل أم بالقرية أصابتها بعض الكلمات القاسية من سنية سواء فى الأعوام السابقة بسباب مباشر أو فى هذا العام أو نقلا عن أخريات خاصة فى أماكن تجمع نساء القرية عند ماكينة طحن الغلال والتى يطلقون عليها "وابور الطحين" والتى تتجه النساء إليها لطحن حبوب القمح والذرة لإعداد الخبز.

كانت سنية لا تعتد بنظام الدور، بل تدخل مباشرة لطحن حبوب القمح والذرة دون اكتراث بأن الدور القادم على سيدة اخرى وإذا بدرت بادرة من أى واحدة منهن باعتراض طفيف يتمثل فى صورة رجاء بأنها أودعت ابنتها الرضيعة عند الجيران وتريد العودة مبكرا كى ترضعها فسوف تلقى نصيبها من السباب وقد تندفع للهجوم عليها ممزقة ثيابها وضربها وتعود تلك السيدة إلى منزلها وأثار المعركة بادية عليها باكية سوء حظها العاثر.

فى إحدى تلك المرات قامت سنية بعد معركتها مع احدى ضحاياها ببعثرة حبوب القمح على الأرض بين صراخ النسوة مما دفع صاحب ماكينة الطحين للتدخل ونهرها لما تفعله وكان نصيبه

البهدلة و "خرشمة" وجهه وأهانته فأمر عماله بطردها من المبنى، غادرت سنية المكان وهى تلعنهم جميعا ووقفت أمام مبنى الماكينة تكيل لهم السباب واللعنات مانعة أى سيدة من الاقتراب من الماكينة وظلت على هذا الحال عدة أيام قامت خلالها بحصار الماكينة حتى رضخ الرجل وقام مع بعض الأعيان بزيارتها فى منزلها مقدما اعتذاره عما بدر منه وأنها منذ هذا اليوم لها الأسبقية الأولى فى طحن دقيقها مجانا بل اقترح أحد وجهاء القرية بأن يرسل بأحد عماله لأخذ الحبوب وطحنها وإعادتها إليها مرة ثانية.

استطاع عوف بعلاقته ببعض الأصدقاء بمدينة المنصورة أن يعثر على الزوج المناسب لابنته عزيزة؛ شاب يتيم يعمل مع أحد تجار الخضار بالجملة فى سوق المدينة الكبير، ارتضاه عوف رغم فقره لأنه كان على خلق وعلاقته دائمة بربه يراه دائما يؤدى الصلاة فى أوقاتها وهى نفس طباع عوف أيضا ولهذا سعد بهذا الشاب طالبا من زوجته عدم التحدث أو التكلم معه وأن كل ما تقوم به هو الترحيب به ثم الابتعاد عنه، اقتنعت سنية بحديثه خاصة أنها بدأت تشعر بنتيجة تصرفاتها وهى تنظر لابنتيها وهما على مشارف الزواج ورغم ما يميزهما من جمال فلم يتقدم أحد إليهما واقترن الشباب بأخريات من بنات البلده وهن فى طريقهن للإنجاب. ولكن كما يقول المثل لكل داء دواء إلا الحماقة فلا دواء لها

## سُعاد بالمدينة

مدينة المنصورة الجميلة عام ١٩٥٨ ومازال عوف يمر على الأحياء الراقية مناديا على بضاعته"الخس اللوز" فيسرع إليه البوابين والخدم لإحضار ما طلبه أهل المنزل، أمام فيلا مدير بنك باركليز اسرع البواب إليه ملقيا عليه السلام طالبا منه الحضور إلى داخل الفيلا لمقابلة الهانم فى أمر هام، تخوف عوف من هذا اللقاء متسائلاً:

– خير ياعم "نوبى"الست الخواجايه عايزانى فى إيه؟ اجابه بأنه لا يعلم أى شيء وأن كل ما أخبرته به فى الصباح عندما يحضر بائع الخس أن يطلب منه لقاءها، ركن عوف عربته بأحد أجناب الفيلا موصيا عليها عم نوبى البواب ودلف إلى داخلها مهندما ثيابه الرثة يدعو الله أن يكون الأمر خيرا فهو يعلم أن تلك السيدة جادة ومتزنة ولا تثير المشاكل بل أنها تشترك فى عدة جمعيات خيرية من أجل خدمة الفقراء والمحتاجين ومن المحتمل أن تكون بضاعته رديئة ولهذا ترغب بتهديده ووعيده بألا يحضر لتلك المنطقة مرة ثانية.

أسعفه عم نوبى بأن سار أمامه ضاغطا على جرس الفيلا من الداخل حيث قام الطاهى بفتح الباب فشاهد عوف السيدة تقف أمامه فى مدخل الباب، سيدة فارعة الطول، نحيفة القوام، ترتدى ملابس الخروج كعادة الأجانب فى ارتدائهم ملابسهم بعد مغادرة

السرير كأنهم على موعد.

ادركت السيدة حالة الإرتباك التى شاهدتها على وجه الرجل والتى تعرفه منذ عدة أعوام، فقد شاهدته كثيرا سواء من شرفة الفيلا أو أثناء عودتها من رياضتها المفضلة بالسير على كورنيش المدينة للتريض، رحبت به كى تزيل عنه أى خوف أو اضطراب، تحدثت معه:

- "أهلا أووف "عوف". رحب بها الرجل بالابتسامة والإشارة وتحريك يده على صدره.

ـ نعمين يا ست هانم، عم نوبى عرفنى أن حضرتك عايزانى اشارت إليه بالتمهل طالبة منه الجلوس؛ جلست السيدة بينما عوف افترش الأرض جالساً فطالبته بالجلوس على الأريكة المقابلة للأريكة التى جلست عليها؛ امتنع إحتراما لها وللمكان ولكنها صممت على رأيها فنفذ أمرها بأن جلس جلسة خفيفة على حافة المقعد الوثير خشية أن تنتقل أوساخ جلبابه المتهالك إلى المقعد اشارت إلى الطاهى بأن يحضر مشروبا له، ذهب الطاهى من حيث أتى دون سؤاله عن المشروب الذى يرغبه، فهو يعلم أنه لابد من شرب الشاى قاتم اللون والسكر زيادة، فهذه عوائد أهل الريف والصعيد.

جلست السيدة فى مواجهة الرجل الذى كان ينظر إلى السجادة

بأرضية الأنتريه كسيراً خائفاً؛ أشارت السيدة إلى عم نوبى بالتوجه إلى عمله خارج الفيلا؛ تحدثت إلى عوف بصوت واضح متوسط النبرة ضاغطة على أحرف كلماتها العربية.

. أووف ... نظر إليها كسير النفس.

. نعمين يا ست هانم.

. سُوف أووف ... انا آيز بنت سغيره حلو كتير تيجى تعيس معايا انا ومسيو "دوفان" فى الفيلا .. وتتكلم معايا سوا سوا .. ابني مكسيم بيدرس فى وتن فرنسا (وطن فرنسا) ومفيس هد يكلم معايا .. وطول نهار اعيس لوهدى ومافيس غير "بربارة" تعيس معايا .. برباره مس يتكلمتو .. ولكن انا آيز هد يكلمتو معايا ..

نظر إليها رافعا يده للسماء بالدعاء.

. ربنا يشفى الست برباره وياخد بيدها وتتحدت معاكى، يمكن عندها تعب فى زورها، عايزه تشرب ورج جوافه مغلى ... مفيد والله يا هانم ... قاطعته ضاحكة:

. "بربارة" دى اسم واهد كلب مس إنسان فاهم أووف؟

. حاضر يا هانم .. حاضر .. ثم صمت.

- آيز بنت سغيرة .. مس بيبى لكن عمره سبعة سنه تمانيه سنه يكون نديف أووف .. مس اهبو كذارة فاهم أووف.

. حاضر يا ست هانم .. تكمل حديثها:

. انا ناولتو لها كل اخر سهر اتنين جنيه، كويس أووف؟

ـ دا حلو خالص يا ست هانم، ربنا يعمر بيتك، حاضر حاشوف طلبك ... حضر الطاهى بالشاى وقدمه الى عوف.

. أتفضل يا عم عوف.

ـ ربنا يسلم إديك يا خويا؛ بعد أن أنتهى عوف من شرب كوب الشاى ... ردد:

. متشكرين يا ست هانم.

استوضحت منه جين عما تريده وأعادت بعض فقرات حديثها السابق حتى لا ينساه.

. أيز يكون بنت كويس وبيفهم وله مه "مخ" نديف، فاهم؟

. حاضر يا ست جين.

انتهى اللقاء وودعها خارجا بعد أن وعدها بأنه فى خلال أيام قليلة سوف يبحث لها عن طلبها المنشود.

بعد ظهر هذا اليوم جلس عوف مع زوجته التي كانت تجلس أمامه هامدة بعد أن إنتهت من وصلتي ردح لبعض جيرانها واخبرها بلقاء الست الخوجاية وما طلبته منه وطلب منها العون متسائلاً:

. تفتكرى البت كوثر بنت إبراهيم أبو السيد تنفع يا سنيه يا مرتى؟

نظرت إليه بضيق:

. بنت ابراهيم أبو السيد مش ح تشرف ياعوف، البت راسها بتشغى جمل زى أمها، عيله معفنه ومجملين، جتهم ضربة فى روسهم. يعيد ترشيح فتاة أخرى وتعيد زوجته حديثها السابق لاعنة تلك العائلة وأمها اللى جتتها ما شفت الميه من جلة الحموم.

ـ غلب حمارى يا سنية، وبعدين أجول إيه للوليه الخواجيه، بكرة حتسألنى ومش ح تبطل سؤلات وأنا مش عارف اجولها إيه؟ تجيبه:

. يا راجل يا أعمى، ما بنتك سعاد موجودة اهه .. جدامك .. رايح تدور على بنات الناس وسايب بنتك ملهاش شغله غير الجرى فى الحاره واللعب مع العيال فى الجرن وعند النخل وحدا الترعه، بدل ماهى بتلف فى البلد والناس بتتمجلت عليها وأروح اتغاوش مع النسواين خدها نخلص من بلاويها واتنين جنيه حلوين؛ متسائلاً: والدموع تكاد أن تخرج من مقلتيه.

. تهون عليكى سعاد، دى آخر العنجود ... تشيح بيدها فى وجهه.

ـ عنجود ايه وسباطة ايه، كل أخواتها بيشتغلوا وبيساعدوا فى المعايش، خدها خليها تنضف من التراب والدبان اللى مبهدلها وغطى على حلاوتها.

ـ بس انتى عارفه أن البت دى غاليه عندى جد ايه، مش حأجدر على بعدها، تعيد حديثها بقوة:

ـ شوف يا ابن الناس، متعملش معاها زى ما أبويا عمل معايا

وفضل يدلع فيا لحد ما بجيت اشتم اخواتى وهو مبسوط منى ودلوجتى أنت شايف حالتى عامله ازاى وكل الناس كرهانى على طولة لسانى وانا أتعودت على كده وبعدين أنت كل يوم بتروح عند دارهم وحتشوفها وحتنزل تشترى منك الخس، ابجى جعدها على حجرك شويه زى ما بتعمل هنا، صمت قليلا ثم نظر إليها قائلاً:

. يعنى انتى شايفه كده؟

. ايوه .. السن مناسب والبنت حلوه وتفتح النفس ونضيفة، ح أجوم احميها وانضفها من الجمل اللى بيرعى فى شعرها من لعبها مع بنات الحته، نهضت تنادى على ابنتها:

ـ بت يا سعاد .. تعالى ... اسرعت الطفلة لتلبية نداء أمها خشية أن تبطش بها وتفرج عليها صديقاتها مثل ما يحدث لأى فرد من العائلة عندما يخالفها الرأى أو يعصى لها أمرا أو ندءاً.

. حاضر يا أما.

حضرت الطفلة مسرعة فصعدت بها إلى سطح الدار حاملة زجاجة الجاز "كيروسين" وعلبة صغيرة وفلاية "مشط خشبى" حيث تضع قليلا من الجاز فى العلبة وتبلل المشط وتقوم بفرد شعرها الطويل بين صرخاتها من قسوة من ألم فرد الشعر وأمها صائحة فيها قائلة:

ـ بانضفك يا مجملة يا بنت المجمل ... بالأسفل سمع عوف

السباب لشخصه ولإبنته ضاحكا، فقد اعتاد على ذلك وأصبحت تلك الشتائم تخرج من فم زوجته مثل التنفس.

بعد جهد ومثابرة إستطاعت الأم فرد شعر سعاد بفتحة المشط الواسعة وغيرت الجهة الأخرى من المشط أى الجانب الضيق لتخرج ما يرعى فى شعر الصغيرة من حشرة القمل والتى كانت دائما ما تدفعها إلى هرش رأسها سواء أثناء اللعب أو النوم بل وأثناء الطعام؛ إصطحبتها بعد ذلك إلى زريبة المواشى الغير مزودة بسقف حيث تعيش به الأغنام والماعز وطيورها التى ترعاها، اعدت الماء الساخن وبليفة خشنة نظفت جسد الصغيرة بين صرخاتها وبكائها وغيرت ملابسها بأخرى نظيفة، أصبحت الصغيرة نظيفة ولا تعلم إلى أين تتجه أو ما خططه لها والداها، فقد أصبحت مثل الماعز الموجودة بالزريبة عندما يسحبونها ويذهبون بها إلى السوق لبيعها عائدين بدونها بعد تركها للتاجر مقابل بعض النقود التى تعينهم على العيش فى هذا المستوى المنخفض ماديا واجتماعيا.

فى الصباح اصطحبها والدها معه إلى المدينة، كانت سعاد فرحه سعيدة بأنها سترافق هذا الأب العطوف الحبيب الذى لايفتأ عن تزويدها بقبلاته الحانية، كانت تحمل معها "بوقجة" ملابسها وهى البديل عن الحقيبة، الطفلة مسرورة بأنها ستشاهد البندر وشوارعه الفسيحة الجميلة ومبانيه المرتفعة العالية وتنظر إلى كل

شيء تشاهده بسعادة والأب الملتاع يعد الدقائق والثوانى طالبا من الله أن ترفضها الخوجاية ليعود بها إلى بلدته ثانية مؤنبا نفسه على السير وراء شطحات زوجته التى لا تعرف كيف تتحدث مع الآخرين حتى ابنتها الصغرى ضحت بها، كانت دموعه تندفع حين ينظر إليها من أسفل الكوفية مجففاً دموعه المنهمرة لشعوره بأنها ستفارقه بعد عدة دقائق مما دفعه لأن يغدق عليها من عطفه بشراء حلوى وكل ما تهفو إليه نفسها، مازالت سعاد فرحة تعطيه المكافأة السخية بقبلاتها الصغيرة فيتحسس وجهها الناعم وتزداد الأمور تعقيداً على نفسه عندما يسأله البعض عن تلك الطفلة الجميلة فيجيبهم بفخر أنها ابنته، أشاد بها كل من شاهدها وأحدهم صارحه قائلاً:

- يا راجل حرام عليك تبهدل بنتك الحلوة دية فوج عربيتك، خليها فى دارك أحسن، دى لسه صغيرة ومش حمل المرمطة.

ازدادت هواجس الرجل، فقد شعر بأنه اخطأ الرأى والنصيحة قائلا فى نفسه: كنت انخرست ومعرفتش مرتى بكل اللى حُصل، فكر بأن يعود بها إلى بلدته معتذرا للخوجاية عن تلك المهمة لكنه وجد نفسه أمام باب الفيلا وعم نوبى ينتظره ولاحظ السعادة على وجهه بأن شاهد الطفلة برفقته قائلاً:

- زين ما اخترت ياعم عوف، دا الست هانم حتفرح خالص، دخل

عم نوبى فأخبر السيدة بحضور عوف وبرفقته الطفلة، طلبت منه أن يدخلهما، امسك عوف بيد ابنته الصغيرة التى تسير بجواره مطمئنة وممسكا بـ "بوقجة" ملابسها، نظرت إليها السيدة بابتسامة كبيرة قائلة:

. هايل أووف، أنت مكار كتير، جبتو هلاوة دى منيين؟

اشارت إلى الطفلة بيدها قائلة:

ـ تعالى هنا بنت جميل، أنت بيبى هايل، دفعها الرجل إلى السيدة قائلاً:

. "حبى على إيد الست" أى قبلى يدها ولكن السيدة رفضت وانحنت تحتضنها والطفلة ببرائتها وشجاعتها بأن والدها معها ومن أجل هذا فهى لا تهاب تلك المواقف؛ طلبت السيدة من الطاهى الحضور وتسلم ملابس الطفلة؛ سألت عوف:

. بنت ناس كويسن أوف؟ أجاب والدموع بعينه،. ايوة يا ست هانم دى بنتى الصغيرة. دهشت:

ـ كويس كتير أووف، عندك تقل كويس كتير، اسمكِ إيه هبيبة كلبى؟

. سعاد

. هايل سؤاد ... وجهت حديثها إلى عوف.

ـ أووف، سُوف؛ أول كل سهر تيجو تاخد منى فلوس، اتنين جنيه

كويس أووف؟

. اللى تأمري بيه يا ست هانم، كلتنا خدامينك.

ـ لالالا مس أيز اسمع كلام زى كده، وده مس كويس أووف، ما فيس هاجه اسمه هدام، فاهم أووف؟

. فاهم يا ست هانم، تحرك عوف مغادراً الفيلا قائلاً:

ـ خليكى يا سعاد هنا مع الست هانم وانا ح اروح أشوف مشاغلى بس أوعى تكسرى حاجه واسمعي الكلام، مبسوطة يا سعاد؟

دهشت الطفلة؛ فقد تركها الأب الحنون فى هذا المكان للمرة الأولى بمفردها، بكت وتوسلت إليه بألا يتركها؛ تركت المكان المجاور للسيدة كارهة له تريد اللحاق بوالدها فأعادها باكيا؛ انقلب الحال إلى مأساة؛ طلبت السيدة من الطاهى الحضور:

. أبده "عبده"؛ اسرع بالحضور.

ـ نعمين يا ست هانم. اشارت إليه.

. هد واهد تفل إلى الداخل واطلب من زوجة تنظيفه، فاهم أبده؟

. فاهم يا ست هانم.

حملها عبده والطفلة تصرخ باكية وتضربه على ظهره بيدها الصغيرة، تحرك عوف خارجا لا يرى طريقه والدموع قد ملأت عينيه واستند على الحائط حتى وصل إلى الباب الخارجى، هون عليه عم نوبى قائلاً:

- يا راجل بتبكى عليها، زى ما تكون بنتك؟ نظر إليه مردداً:
- ماهى بنتى الصغيرة، اندهش الرجل ثم ربت على كتفه.
- ربنا راضى عنك وعنها، الست هانم ح تغيرها وح تخليها بنت ناس وذوات مش زى حالنا، يومين زعل لكنك ح تكون مبسوط لما تشوفها عايشه كويس؛ تركه عوف وانهمك في عمله وراح ينادى على بضاعته .. الخس اللوز .. شعر أن صوته أثناء النداء لا يصل أبعد من طول العربة الكارو التى تسير بجواره ولاحظ أن الحمار ينظر إليه بدهشة فضايقه هذا فنظر إليه متسائلاً:
- أنت زعلان؟ هز الحمار رأسه محدثا صوتا "نفرة" الحمار ..
- أنا عارف انى غلطت لكن إللى وجع يتصلح.

عاد الرجل إلى منزله آخر النهار مهموما وقد غلفه شعور بأنه وارى أحب أبنائه إلى قلبه التراب، بداخل الحجرة انفرد بنفسه باكيا بتألم وامرأته أمامه تواسيه تحدثه قائلة:

- كل الناس كده حتى انا لما أجوزت فاكر أبويا عيط ازاى؟ جفف عوف دموعه وعلق:

- والله ما حصل، انا عرفت أن عمى دبح غنمتين علشان خلص منك، كادت تفترسه وفتحت فمها ليخرج صوتها بأقذع الشتائم له ولعائلته وهى تشبهه تارة بأبو فصادة ومرة بالجحش الزرايبى ولم تتركه إلا بعد أن تركها مغادرا منزله هائما على وجهه فى شوارع

القرية الضيقة بعد ما حدث اليوم لابنته سعاد.

إلتقاه إبراهيم أبو نبوت الذى يعمل خفيرا نظاميا فى القرية فألقى عليه التحية فلم يجبه؛ استوقفه قائلاً:

ـ مالك يا واد يا عوف؟ ماشى تايه زى كفله الشر اللى مات له عيل؛ بكى عوف قائلا:

. فعلا مات لى عيل النهارده، انزعج الصديق مردداً.

. لا حول ولا قوة إلا بالله، مين يا وله؟

. بنتى سعاد؛ صفق الرجل يدا بيد قائلاً:

ـ لا حول الله؛ لكن محدش عرف فى البلد، وازاى الحكاية دية حُصلت؟ يعنى غرقت فى التُرعة ولا طرميبل داسها؟

. أبدا كانت معاىَ فى البندر!!! مازال الرجل مندهشاً.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .. أقبل بعض الفلاحين فأخبرهم إبراهيم أبونبوت بوفاة ابنة عوف اليوم فى البندر؛ تجمع الرجال يواسونه واقبلت إحدى النساء على تجمعهم فعلمت بالخبر فأطلقت عدة صرخات أعقبها صرخات النسوة من دورهن دون أن يعلمن السبب فى دقائق انقلب حال البلد من حال إلى حال وحضر الفقى فخلع نعليه وجلس أرضا ليقرأ ربع على روح المرحومة وقد ضمن عشاء أسرته لتلك الليلة كما حضر التربى للقيام بواجبه كما تجمعت صديقات سعاد باكيات وبعض النسوة ذهبن إلى دارها لتقديم واجب

العزاء للأم رغم خشيتهن من طول لسانها.

فوجئت سنية بجمهرة العديد من النساء وعلمت بالخبر والسبب فى ذلك هو زوجها الذى ترك ابنته فى الشارع بالمنصورة وقد لطشها طرومبيل وماتت على الفور والبعض تسائل عن الجثة والبعض تطوع ليخبرهم بأنها بالمشرحة الآن ومازال أهل البلدة مجتمعين حول عوف كما حضرت أختها المتزوجة وبكت شقيقتها الصغرى ونفر من القرية عدد محاسنها وآخر علق قائلاً:

- هيا البت بنت موت، أى والله؛ البت حلوة وجميلة ومؤدبة ومش زى أمها طويلة اللسان اللى عايز جطعه؛ فى هذا التوقيت كانت سنية قادمة فسمعته يقول ذلك؛ قفزت عليه صارخة فيه ناشبة أظافرها فى رقبته وكاد الرجل أن يلقى حتفه لولا تدافع الرجال لإنقاذه مما إضطرهم للإستعانة بحلاق الصحة لعلاجه.

البعض أخبر العمدة بوجود حالتين؛ أحداهما وفاة والأخرى إصابة من يد أم المتوفاه، أسرع إلى تليفونه لإبلاغ النقطة ليخبرهم بأن سعاد ابنة عوف عبد الصمد لاقت ربها اليوم اثر حادث فى البندر وأن الجثة بالمشرحة والنيابة تقوم بدورها وسنخبركم بكل جديد.

قفزت سنية على زوجها محاولة خنقه وهى تسبه بكل عبارات سيئة قائلة:

. عملت ايه فى بنتى؟ وبعد أن أنقذه الناس من يدها صاح بها:

ـ الله يخرب مشورتك، مش انتى وافجتى أنها تروح حدا الست الخوجاية، الله يخرب مطانيك، انتى بتنسى يا ولية؟ نظرت اليه:

. يعنى البت عند الخوجاية؟

. أيوه.

. يعنى البت ممتيتشى (ماتت) ؟ يعيد صراخه:

. بتبشرى عليها ليه.

. يعنى البت بخير ولسه فيها الروح؟

ـ ايوه، وانا بأفكر أجيبها بكره بلاش الحكاية دية؛ نظر إليه الناس بدهشة ومن بينهم إبراهيم أبو نبوت لاعنين أصله وفصله وأنه راجل كاذب، ساروا به إلى دوار العمدة الذى وجد نفسه فى ورطة؛ فقد أبلغ نقطة الشرطة التى بدورها أبلغت المركز بالحادث.

قضى عوف ليلته بسلاحليك العمدة بتهمة البلاغ الكاذب وتم تحويله فى اليوم التالى إلى النقطة حيث حصل على حقه من كرم الداخلية ثم إلى المركز فحصل على النصيب الأكبر من الإهانة؛ أفرج عنه بضمان محل إقامته بعد علم وكيل النيابة بكل دقائق الموقف وأنه لم يبلغ أى جهة رسمية حتى العمدة الذى تسرع بإبلاغ النقطة بمجرد سماعه لفضفضة بين رجلين دون التأكد من هذاالخبر.

## بعد مُضى أسبوع

عاد الرجل إلى بيته بعد ثلاثة أيام بعد أن تورم قفاه وحصل على عدد من ركلات الجزاء ومسح بلاط النقطة والمركز نسى خلالها مأساة ابنته ولم يعد يفكر فيها بعد ما تعرض له خلال الأيام السابقة.

افتقدت سعاد أباها وغمرها الحزن والألم على قلبها الصغير ولا تعرف كيف التصرف وعلاج ما حدث لها، لقد تركها والدها وديعة عند تلك العائلة التى لا تعرفهم مُسبقا ولا تستطيع التكيف معهم فالحياة غير الحياة والناس مختلفى الطباع والشكل واللغة، أين هى الآن مما سبق وهى تلهو فى حوارى القرية وأزقتها؟ فدائما ما تحن إلى اللعب والسير حافية دون حذاء يقيد حركتها والإلتزام بوسائل النظافة المتبعة هنا، أنه أسلوب لم تعهده من قبل، أين صوت أمها المرتفع وضجيجها التى تستيقظ عليه كل صباح؟ أين الحمار والماعز والأغنام؟ أين التراب والطين وأين شجرة الجميز التى تذهب إليها وتأكل منها، أين شقيقاتها ومعارفها وأصدقائها؟ أين الفرن والكانون ورائحة الخبز المّعد لهم؛ أين أصوات الدواجن ومرحها معهم حين تذهب لإحضار البيض لأمها؟

جلست ساهمة مرات ومرات يغلبها البكاء ولا يفرج عنها سوى هذا الحيوان الأليف؛ أنثى الكلب "بربارة" التى تحضر على فترات

لتلعب معها وتقفز على سريرها تلعق وجهها تحدث أصواتا خافته كأنها تناديها هيا للعب والمرح فانا الأخرى أعيش فى هذا المنزل بعيدة عن عائلتي وموطنى وحياتى التى تعودت عليها وأنا جرو صغير اتبع أمى واخواتى والعق صدرها وأنام بجوارها تداعبنى وتلاطفنى وتهمس فى اذنى.

حدث تقارب بينهما، الطفلة والحيوان وكأن الله قد جمعهما ليأنس كل منهما بالآخر، فهما روحان صغيرتان بريئتان لا تعرفان من شرور الدنيا شيء وكلاهما اجتمعا على مأساة واحدة، الاغتراب والبعد عن الأهل وعدم المقدرة على الإفصاح عما بداخلهما وعدم المقدرة على التصرف والعودة إلى حياتهما الطبيعية السابقة.

هونت "بربارة" على صديقتها الطفلة التي لا تهاب الحيوانات فقد تعودت على اللعب واللهو معهم سواء فى الحارة بالبلدة أو فى منزلهم المتواضع وهى تلاعب الأغنام والماعز وأطفالها كما أن الأطفال بطبعهم يرحبون بالحيوانات يداعبونها والحيوانات من جهة أخرى تشعر بالألفة نحوهم، فالحجم متقارب ويشعرون بأنهم من نفس فصيلتهم، فالأصوات خافضة والأيدى صغيرة ناعمة والحديث بينهما يبدو واضحا متفاهما لأنهما يجتمعان على شيء واحد اللعب واللهو.

فى المساء اقبل "مسيو دوفان" وشاهد الطفلة فحاول ملاطفتها

وملاعبتها حيث كانت تذكره بابنه مكسيم وهو طفل صغير، كما أن للأطفال بريقا خاصا يجدد الحياة ويبعد الإنسان الجاد عن همومه حين يلاحظ براءتهم دون سعيهم للكسب والتربح والغش والكذب وتلفيق الاحداث والخداع الذى ورثه أبناء آدم منذ بدأ الخليقة، الطفلة هى الأخرى نظرت إليه بدهشة، فهذا الرجل الذى يرتدى زيا مخالفا لوالدها وشكله وحجمه وأسلوبه مخالف لأبيها ولكنه يجتمع معه فى خشونة الصوت وفى أسلوب عطفه ومودته.

جلس أمامها على حافة السرير ينظر إليها بكل عطف وشفقة فالعطف ناتج من حبه لها رغم أنه لا يعلم عنها أى شيء، لقد فوجيء بوجودها بعد أن أخبرته زوجته عند حضوره بمفاجأة سارة تنتظره، سار خلفها ليشاهد تلك المفاجأة حتى إذا شاهدها هتف قائلاً:

. الله .. أنها رائعة يا جين .. أنها ملاك .. يالكِ من محظوظة فى العثور على هذا الملاك البشرى .. كيف وصلت إليها وما هو وضعها القانونى بالمنزل؟

. "دوفان" هبيبى؛ أنها ابنة بائع متجول يدعى أووف.

انتبهت الطفلة لان اسم أبيها ذُكر فبكت وهى الصغيرة التى لا تخشى من هذا التصرف؛ هذا هو سلاحها الذى زودها به الخالق لكي تستنجد وتطلب العون وقد تأثر مسيو دوفان مربتا على كتفها

الصغير وداعب شعر رأسها الناعم ومسح على خديها الصغيرين وامسك بأصابعها الرقيقة محاولا تهدئتها، نظر إلى زوجته شبه دامع العين متأثراً من حال الطفلة متسائلاً:

. جين لماذا؟ ما كان يجب عليكِ فعل ذلك.

اوضحت له أن هذا تم بموافقة الأب وإنها حاولت إضفاء وإشباع عاطفة الأمومة التى فقدتها منذ سفر ابنهم الوحيد "مكسيم" إلى وطنه فرنسا للدارسة بالجامعة العام الماضى، موضحة له بأنها أم وتهفو للطفلة لمداعبتها وبثها الحب والعطف.

. دوفان .. لا تتخيل حينما قمت اليوم بنظافتها وملاعبتها ومشطت شعرها، كان قلبى يرقص طربا وسعادة، أنه لشيء رائع، أن يعود إلىّ هذا الشعور بالأمومة، عاتبها مستكملا حديثه:

ـ أؤيد هذا الشعور لكنك تناسيت شعور الطفلة التى انتزعتها من بيئتها ومن عائلتها، لقد أصبحت يتيمة ووالديها مازالا على قيد الحياة، ورغم سعادتى بوجودها إلا أننى أشعر بالحزن على هذا الوجه البرئ ودموعها التى تنهمر من عينيها الصغيرتين، تخيلى لو حدث هذا مع ابنك مكسيم وهو فى نفس عمرها، كيف سيكون عليه شعورك؟ آه يا طفلتى الصغيرة، أنا أفكر فى أن احملها واذهب بها مع السائق إلى بلدتهم واعيدها إلى عائلتها.

غضبت زوجته طالبة منه الكف عن هذا وأنها بعد عدة أيام

سوف تعتاد على تلك الحياة الراقية التى ستوفرها لها؛ نظر إليها بكثير من الألم والحزن الذى غمر وجهه موضحا:

- جين .. ألا تشاهدي الطيور والحيوانات فى أقفاصها فى حديقة الحيوان ورغم ما يقدم لها من رعاية ترفض كل هذا وإذا واتتها الفرصة للهرب فسوف تهرب، أنها الحياة والبيئة التى عاشوا بها ولا يستطيعون الاستغناء عنها.

بكل رفق قامت جين بمساعدة دوفان على النهوض طالبة منه إبدال ثيابه، فقد أعد الطاهى الطعام؛ انصاع لرغبتها ناهضا لتنفيذها، فى تلك اللحظة رفعت الطفلة يدها لأعلى دليلا على رغبتها فى أن يحملها مثلما كان يفعل والدها؛ دون حديث أو توضيح أعلنت سعاد عن رغبتها وتفهم دوفان تلك الرغبة فعاد وانحنى عليها حاملا إياها، شعرت بالسعادة من سماع صوته والتى لا تفهم منها أى كلمة، سار بها خارج حجرتها وتبعته زوجته سعيدة فرحة بما ألم بزوجها من حبه لتلك الطفلة؛ فهما الإثنان فى أشد الشوق لممارسة الحنان الأبوى؛ تبعتهم بربارة تهز ذيلها بنباح قليل والطفلة تنظر إليها من فوق كتف دوفان تلاعبها؛ فى تلك اللحظة أنزلها دوفان من على كتفه للأرض فقفزت خلف بربارة جريا ولعبا وصعدا إلى الدور العلوى ثم هبطا جريا تملؤهما السعادة.

هذه هى الليلة الأولى والتى قضتها الطفلة بعيدة عن

عائلتها، لم يغمض لها جفن وكانت ليلة بائسة ما بين البكاء تارة وبين التحدث أثناء نومها تارة أخرى حتى انبلج صباح اليوم التالى إستيقظت من نومها ونظرت حولها وهى فى دهشة، أين انا؟ أين عائلتى؟ أين حياتى؟ أين أنا؟ إندفعت فى بكاء مؤلم فهرع إليها الزوجان يحاولان تضميد جرحها النفسى.

حوالى العاشرة صباحا وبعد أن تناولت طعام الإفطار مع عائلتها الجديدة ومع المحاولات التي كانت تقوم بها جين كي تعدها وتأقلمها على تلك الحياة وتقوم على تعليمها أسماء أدوات الطعام ونوعيته بالفرنسية وتبدل لها ملابسها وتذهب بها إلى حديقة المنزل ترافقهما بربارة، هناك شاهدت عم نوبى، هذا البواب الذى يقف مثل أجداده الفراعنة بكل شموخ وهدوء واحترام مع إهتمامه بعمله ولا تفارق وجهه الابتسامة المضيئة، رحب بها:

ـ صباح الخير يا سعاد، عاملة ايه يابنتى؟ غمرتها السعادة؛ فقد سمعت أصواتا تفهمها وتعبيرات تسمعها من والدها ومن كثير من الناس فى بلدتها؛ اجابته وهى حزينة:

ـ فين أبويا؟ عايزه أبويا .. عايزه اخواتى .. عايزه ارجع لدارنا .. اندفعت باكية وتأثر الرجل ونظر إليها وتذكر ابنته فاطمة القريبة منها فى العمر والحجم؛ تساءل:

ـ ماذا لو حدث لابنتي ما حدث لتلك الطفلة؟ سوف تبكى مثلها

وسوف تتألم كما يتألم والداها الآن، إنه الفقر الذى دفع بهذا المسكين عوف لأن يسلم فلذة كبده للمدام؛ الفقر الذى ألم بنا نحن المساكين الذين حُرمنا نعمة الحياة الهانئة الراقية وكتب علينا أن نلهث وراء لقمة العيش بصحتنا وكرامتنا ونضحى بأعز شيء نملكه وهم فلذات أكبادنا، لقد أصبحنا مثل الماعز والأغنام نبيع حرية أبنائنا نظير بعض الجنيهات والقروش القليلة كى نشترى بها طعاما لأنفسنا حتى نظل على قيد الحياة وبالتالى نستطيع الإستمرار فى خدمة اسيادنا، إذاً نبيع كل شيء لنبقى مستعدين لنعطيهم الراحة وكل ما يطلبونه منا، آه عليك أيها الفقير! لنا الله وليس لنا أى شيء آخر.

امسكت الطفلة بيده ونظرت إلى الشارع بينما نظر هو إلى باب الفيلا الداخلى وما زال يحاور نفسه متسائلاً: ما هو شعور كلّ من المدام والمسيو دوفان لو أن أحدا كان قد طلب منهما أن يتنازلا عن ابنهما وهو طفل فى عمر هذه المسكينة.

انزعج؛ عم نوبى، مرددا: سوف يقلبان الدنيا رأسا على عقب عاد إلى هدوءه واستعاد وعيه بأن هذا لن يحدث أبدا، يردد:

. إيه يا نوبى، دماغك لفت وراحت على فين؟ خليك فى حالك وسلم بالأمر الواقع، إحنا كده وحالتنا كده وربنا يديم علينا الصحة والعافية ويبعد عنا ولاد الحرام.

وقفت سعاد على السور الصغير المبنى والذى لا يزيد إرتفاعه عن الأرض نصف المتر وأمسكت بأصابعها الصغيرة السور الحديدى المقام فوق السور المبنى والذى يحيط بالفيلا، نظرت إلى الشارع تشاهد رجالا ونساء من كل الأشكال والأحجام والملابس فشعرت بسعادة أنها شاهدت بشرا أقرب إلى من شاهدتهم فى بلدتها، تحرك قلبها بسعادة وهى تسمع وتشاهد هذا الخليط من الناس، جالت ببصرها تبحث عن شخص معين من البشر لم تجده بينهم، أقبل صبى فى العاشرة من عمره مهمل الثياب حافى القدمين واقترب منها متسائلاً:

. بت؛ انتى بتشتغلى خدامه فى البيت ده؟

. لأ .. أبويا جابنى امبارح وح يرجع يا خدنى النهاردة.

. انتى مش بتفهمى حاجه، ابوكى مش ح يرجع لكى خالص، انتى خدامه؛ تركها وانصرف بعد أن اغمد خنجرا قويا فى قلبها؛ فهو يعلم أكثر منها بأن أباها لن يعود لإعادتها إلى بلدتهم، بكت ومن حولها بربارة تلهو، تركت السور وجلست مستندة على حافة المبنى المقام أعلاه السور الحديدى، سمعت جين صوت بكاء سعاد فأقبلت مسرعة.

. سؤاد .. هبيب كلبى سؤاد

أسرع عم نوبى بالعدو نحوها:

. نعمين يا ست هانم.

. فين سؤاد؟

. اهى جاعده ريح سور الجنينه

ـ هرام "حرام" نوبى، ده تفل صغير .. سمس " شمس" سديد عليه كتير.

أسرعت جين جهة سعاد وخلفها نوبى، انحنت على الطفلة فحملتها مقبلة إياها، متسائلة متوترة:

. مالك سؤاد؟ تفلتى .. ثم نادت على البواب؛ أسرع عم نوبى.

. نعمين ست هانم

. فين بربارة؟

تجول نوبى ببصره وجسده فى أرجاء الحديقة حتى عثر على بربارة فأشار إليها بأن تتبعه حتى وصلا إلى "جين" فانحنت على أرضية الحديقة ومازالت ممسكة بسعاد، قربت الاثنان من بعضهما لبعض؛ رفعت بربارة قدميها الأماميتان ووضتعهما على كتف سعاد وتبادلا العناق واللعب وتركا جين واقفة تشاهد هذا الإبداع الإلهى للتقارب والتفاهم بين الحيوان والإنسان.

تبارت جين فى نظافة ورعاية سعاد واحتضانها ومداعبتها تعاونها "فريدة" زوجة الطاهى كما ظلت تقوم على تعليم الطفلة بعض أبجديات اللغة الفرنسية وأسماء الأشياء التى حولها وسعاد

تسمع وتعيد ما قالته جين؛ كانت أسعد كلمة سمعتها جين من سعاد هى "ماما" ثم أعقبتها بكلمة "بابا" كل عدة ساعات تعيد جين ما لقنته لها مسبقا مع إضافة بعض الكلمات الجديدة.

مازالت الهواجس وحالات البكاء تعاود سعاد من حين لآخر ليلا وأثر هذا على كل من جين ودوفان وشعرا أنهما أقاما سعادتهما على حساب تلك الطفلة.

مضى أسبوع على حضور الطفلة من بلدتها وحياتها مع تلك العائلة الفرنسية، لم تسمع أو تشاهد خلالها أى أحد من عائلتها أحد الأيام جلست سعاد مع بربارة تلاعبها وفجأة سمعت النداء " الخس اللوز" .. إنها الكلمة الساحرة التى تحفظها عن ظهر قلب وأيضا صوت أبيها الذى يحمل كل معانى الحب والبهجة والحماية قفزت على السور القصير ممسكة بالسور الحديدى وسمعت الصوت قادما مقتربا وشمت رائحته أثناء قدومه باتجاه الفيلا.

أسرع عم نوبى خارج الفيلا وبعد قليل شاهدته قادما مع أبيها؛ لم تستطع السيطرة على مشاعرها؛ هذا هو الأب والحبيب الذى أشبعها بقبلاته كل مساء قبل نومها والذى يقبل يديها ويحضر لها "زر" بطاطا من الدكان ويمنع أى فرد فى العائلة من أن يضربها أو يعنفها، بكل قوة أخرجت من فمها صوتها الناعم الصغير؛ نادت عليه.

. آآبا .. آآبا

شاهدته يهرول نحوها من خارج السور الحديدى وتشابكت أيديهما حبا ولهفة، وضع فمه بين أعمدة الحديد يقبلها باكيا سعيدا بها وهى الأخرى تبادله بكاء وحبا؛ ربت عم نوبى على ظهره طالبا منه دخول الفيلا وتقبيل ابنته ومقابلة الست هانم؛ تحرك جهة باب الفيلا الخارجى ولكن سعاد كانت تستصرخه:

. آآبا .. رايح فين؟ اجابها دامع العين.

. ألف واجيلك .. لكنها صرخت.

ـ لأ .. أنت حتسبنى زى المرة اللى فاتت؛ حاول إقناعها؛ لكن الطفلة لم تصدق حديثه معها؛ سار موازيا لها؛ سعاد تسير من الداخل على حافة السور المبنى المنخفض بينما أبوها يسير من الخارج وبينهما السور الحديدى حتى وصلا إلى باب الفيلا فإندفعت إليه فحملها مقبلا إياها باكية بين ذراعيه.

خرجت جين إلى الحديقة على هذا اللقاء العاصف الدامع ولاحظ عم نوبى الدموع بعينيها الجميلتين، اشارت إلى عوف بيديها الاثنتين.

. تعالى أووف .. تحرك متجها إليها ومازال حاملا طفلته؛ استقبلته بالانتريه كما استقبلته أول مرة وطلبت من الطاهى أن يعد له الشاى، إستفسرت منه عن السبب فى تأخره تلك الفترة، أخبرها بما

حدث لـه مـع العمدة والأمن، استمعت بدهشـة لما حدث لـه ومن اندفاع الناس فى الريف ومن الروايات والقصص الغير مستندة إلى الواقع، أثناء هذا ظلت سعاد جالسة على ساقيه تلاعب شعيرات ذقنه القصيرة وتضع يدها على فمه وأذنه وعينيه؛ تريد أن تتأكد من أن كل حواس أبيها موجودة معها وتشعر بها.

أخبرته جين بحالة سعاد وأنها آسفة لأنها جعلت الطفلة تبكى طوال تلك الفترة وطالبته بأن يعيدها إلى أمها؛ ناولته الجنيهان، بدا الحزن عليه محاولاً أن يعيد إليها النقود لكنها صممت على ذلك اقبل عليهما عم نوبى مستأذنا فى أن يعطى برأي قد يفيدهما سمحت له جين بإشارة من يدها.

. يا هانم .. سعاد ترجع مع عوف .. وبعد يومين تلاته تيجى تانى معاه .. تفضل يومين تلاته .. وترجع لهم .. بعد كام مرة سعاد ح تتعود على كده ومش ح تخاف وعوف كل يوم ييجى هنا وتشوفه .. يعنى البنت ح تشوف أبوها كل يوم سوا هنا أو فى دارهم.

ظهر الارتياح لدى سماع جين لهذا الاقتراح ووافق عليه عوف؛ غادر عوف الفيلا حاملاً طفلته التى كانت تشير إلى جين بنداء "ماما" كما اشارت بيدها الصغيرة علامة الوداع مما أسعد جين كثيرا وضع عوف ابنته على عربة الخس وسار بها ينادى

على بضاعته "الخس اللوز" وسعاد ضاحكة سعيدة بما يقوم به من حوارات مع المشترين ومن حين لآخر يبتاع لها عسلية ونوجة وعيش وطعمية وجميعها أطعمة لم تتناولها فى منزل جين.

عاد عوف آخر النهار إلى منزله حاملاً طفلته بسعادة بعد أن غلبها النعاس أثناء العودة لطول فترة جلوسها تحت أشعة الشمس استقبلتها الأسرة بفرحة غامرة وعادت شقيقتها المتزوجة من العمل فى الحقل ترحب بها وقبل حلول المساء خرجت تلاعب صديقاتها فاطمة وفكيهه وست أبوها، لقد عادت إلى حياتها الأولى.

***

فى فيلا "نيس" عاد مسيو دوفان من عمله فى المساء فشاهد الوجوم والحزن على وجه زوجته جين وإعتقد فى أول الأمر أن معضلة صحية ألمت بها فاستفسر منها عن حالتها ولكنها أجابته باقتضاب بأنه لا شيء بها وأنها صحيحة ولا تشكو من أى داء تركها مناديا على الطفلة .. سؤاد.. سؤاد .. أين انتِ يا ملاكى الصغير؟ عاد إلى زوجته التى مازالت ترمقه بنظرة قوية، بادرها بقوله بأنه يعتقد بأن الطفلة قد خلدت لنومها مبكرا هذه الليلة وما هى إلا لحظة حتى أقبلت بربارة تعوى بصوتها وتلف حوله محاولة الوقوف على أقدامها مستندة بقدميها الأماميتين عل ركبتيه استفسر منها .. ماذا بك بربارة؟ هل اصابك مرض؟ أعاد نظره

إلى زوجته متسائلا: ماذا حدث لكما اليوم .. شاهد الدموع تجرى من عينيها .. جلس بجوارها يربت على خديها بكل رقة وحنان.

- اتبكين ياجين؟ ما بك اليوم؟ هل حدث مكروه لأحد .. ازدادت الدموع فى مقلتيها وارتمت على صدره باكية بصوت مؤثر قائلة:

- سؤاد يا دوفان .. حبيبتى سؤاد .. نظر إليها مليا وفى حاله من الدهشة.

- ما بها سؤاد؟ ارجوكِ اخبريني ولا تدعي الوساوس والشكوك تهاجمنى؛ ماذا ألم بهذا الملاك؟ آه .. أن بربارة هى الأخرى تحتج وقد ألم بها الضيق، ماذا حدث لطفلتنا؟ أمسك بكتفيها وهى الأخرى امسكت بكتفه الوجه فى الوجه والعيون تتلاقى، هى دامعة باكية وهو متألم ولا يعلم ماذا حدث .. تردد:

- سوآد غادرت الفيلا إلى منزل أسرتها يا دوفان .. خلاص دوفان .. ذهب كلبى "قلبى" وسعادتى .. تنهد واستراح واطمأن بأن الأمر ليس بكارثة وليس بهذا السوء الذى توقعه أول الأمر، هدأ من حالها محاولا امتصاص غضبها وضيقها.

- جين .. اشعر بألمك لكن ما يريحنا أنها مع أسرتها وأنتِ تعلمين كم قاست تلك الطفلة الرقيقة ووجودها مع أسرتها هو الحل الصائب والرأى الصحيح .. تجيب باكية.

- اعلم هبيبى لكنها كانت تملأ علىّ المنزل لهوا وسعادة ومرحا رغم

بكائها المتكرر المتقطع .. ساعدها على النهوض واتجها معا إلى غرفتهما كى يبدل ملابسه استعدادا لتناول طعامهما.

احضر الطاهى الطعام وكان باديا عليه هو الآخر الحزن والألم، لاحظ ذلك مسيو دوفان واستفسر منه .. هل أنت بخير؟ حرك رأسه أنه بخير ولم يجب أو يتحدث وكان المتعارف عليه أن الطاهى كثير الكلام وذو وجه مبتسم؛ جلس الزوجان يحاولان تذوق الطعام لكن شهيتهما فارقتهما ولم يتناولا أى شيء منه إلا اليسير، أمر مسيو دوفان الطاهى برفع الطعام من أمامهما؛ هبط الزوجان إلى الدور الأسفل لسماع الموسيقى والتحدث معا مثل كل يوم عن أحوال الوطن والأصدقاء من الجالية الفرنسية بالقاهرة والإسكندرية أما بربارة فقد قفزت على ساق دوفان محاولة التعبير عن شعورها ولسان حالها يقول .. دوفان لقد فقدت صديقتى .. أرجوك أعدها ثانية!!!

مضت تلك الليلة حزينة على الزوجين وهما نائمان كلٌ ينظر إلى الجهة الأخرى ويفكران:

جين تحدث نفسها:

ماذا حدث لكِ وأنت السيدة القوية التى لا تتأثر بتلك العواطف والمشاعر الإنسانية بسرعة .. كيف تتألمين هكذا؟ لقد كان دوفان مُحقا فى أن يطلب منى إعادتها لأسرتها .. ما حال أمها وهى

بعيدة عنها؟ .. فانا لست بأمها ولم تمكث معى سوى أسبوع مؤلم تخلله البكاء ورغم هذا أحببتها ولا أطيق فراقها .. آه إن أمها سعيدة الآن لأنها عادت إليها ثانية .. هذا يكفيني ويعطينى جرعة من السعادة بأن هناك آخرين سعداء بوجودها بينهم .. لكن هذا البواب "نوبى" الذى اقترح بأن تذهب إليهم ثم تعود إلينا وتداوم على هذا يومان مع عائلتها ويومان معى .. لا أعتقد أن عائلتها ستوافق على ذلك وإذا وافقت فلن تستطيع طفلتى البقاء وستعود إلى بكائها ثانية .. اندفعت الدموع من خلال مآقيها فى الظلام فسقطت على الوسادة لتغمرها بهذا الألم وهذا الحزن النابع من قلبها والذى تعلق بالطفلة.

دوفان:

نظر للجهة الأخرى واعتقد أن حبيبته وزوجته جين قد خلدت إلى نومها وحدث نفسه: آسف على اقتراحى يا جين، لكنى كنت حزينا لحزن الطفلة ولم أكن اشعر بأنها ليست ذات قيمة بالنسبة لنا إلا مساء اليوم حين عُدت ولم أجدها وشعرت بأن الفيلا قد غادرها الفرح والسعادة وألم بها الحزن والشقاء ورغم اننى لم اجلس معها لفترات طويلة إلا اننى لا أستطيع الابتعاد عنها .. آسف حبيبتى لقد سببت لك جرحا غائرا وأنا اعلم أن أمومتك شابة، لقد حاولتِ أن تنجبى المزيد من الأطفال لكن لم تكن إرادة الله معنا بعد الحادث

الذى ألم بى فى طريقى من باريس إلى مدينتنا تولوز ومنعنى من الإنجاب ثانية .. انه شىء فوق طاقتى والله هو المتسبب فيه ولكن ماذا افعل؟ وما هى قدرة الإنسان أمام قدرة الرب؟ لقد حرمنى الله أيضا من تلك النعمة وهذه الرغبة التى كنت أشاركك فيها، لكن سعادتى بعودة سعاد إلى أسرتها قللت من حنينى لرؤيتها وسوف أحاول إقناع والدها بان يحضرها للجلوس معنا بضع ساعات كل شهر .

شعر دوفان بأن زوجته قد تصاب بالاكتئاب، فقد أصبحت لا تتحدث كثيرا وتمضى وقتا طويلا جالسة فى سريرها تحملق فى الحائط أمامها ولا تضحك أو تتحرك، حتى التريض على كورنيش المدينة توقفت عنه ولم تعد تحادث صديقاتها، لقد اعتكفت وقرر أن يصحبها لأحد الأطباء بالقاهرة الأسبوع القادم، تنهد الرجل واخلد لنومه حزينا مثل كل يوم، لقد قل الحديث وشعر ببرودة الشيخوخة المبكرة تزحف إليه وإلى زوجته ولم يعد هناك اهتمام بالجديد الذى كان يميزهما بين أصدقائهما.

كل صباح يأتى عوف ببضاعته "الخس اللوز" فتسرع جين إلى الحديقة وهناك تشاهده بموكبه الذى لم يتغير منذ عشر أعوام حينما شاهدته أول مرة وكان مكسيم وقتها عائدا من مدرسة القديس يوسف، نفس الرجل ونفس الحمار ونفس الهلاهيل التى يرتديها، لم

تفارقه ابتسامته وهدوئه مع الآخرين كما أنه عف اللسان دائما وكما أكد لها نوبى بأن هذا الرجل لو أن أحدا من الناس أخذ منه بضاعة ولم يدفع ثمنها فسيخجل أن يطالبه بها، كانت جين سعيدة بتلك المقومات التى يتمتع بها وسكينته ورضاءه عن حاله وهى التى كانت تعتقد بأنه يتمتع بزوجة على مستوى عال من الذوق والأدب لما لاحظته من سلوكه .. نادت عليه .. آووف .. آووف .. انتبه الرجل فأسرع إليها:

. نعمين يا ست هانم .. ابتسمت له كأنها تشاهد وتحدث سعاد.

. آووف. تفلة سؤاد عامل ايه؟ ابتسم الرجل بكل سعادة أبناء مصر البسطاء والذين عوضهم الله بالسماحة بديلا عن المال والجاه ..

. والله يا ست هانم بتسلم عليكى وعلى حضرة الخواجة "لفتان" أسرع إليه عم نوبى " "بالتصحيح" اسمه الخواجة دوفان " أيوه يا ست هانم "الخواجة دفيان"ضحكت على براءة الرجل وحدثته بعض الوقت عن ابنته سعاد.

هذا هو النمط اليومى منذ مغادرة الطفلة منزلها وشاركتها بربارة والتى كانت تسرع بإطلاق احتجاجها على عوف معتبرة إياه بأنه المتسبب فيما حدث لصديقتها؛ كان الرجل سعيداً بهذا الموكب سواء من السيدة أو كلبها اللتين ترحبان به كل يوم ولم يحدث هذا من قبل، شعر بأنهما أهل كما قال لعم نوبى والذى ضحك من

حديثه قائلاً: أهل ايه يا رجل ياور .. ور!!

مضى أسبوع على وجود سعاد بقريتها وتشبعت من عائلتها فطلبت من والدها أن تعود لزيارة "ماما" و"بابا" وشجعتها أمها بسلوكها معها على ذلك فقد أشبعتها طوال هذا الأسبوع ضربا وإهانة وعادت لتسمع العبارات السيئة والألفاظ الخارجة ولتشاهد الأوحال والأتربة ولسعات البراغيث والناموس ليلاً.

علمت سعاد بأن غدا الجمعة سوف يصطحبها والدها لزيارة "ماما جين و بابا دوفان" فى المنصورة .. فارقها النوم وهى تنظر بعينيها فى ظلام الحجرة التى تنام بها مع شقيقتيها زينب ومنيرة .. غدا سوف أشاهدهم ثانية والعب مع بربارة، تذكرت أنها كانت تبكى وتريد العودة إلى قريتها وبيتها ولكنها تعيد تفكيرها بأنها المرة الأولى التى غادرت فيه منزلى ثم تذكرت حديث أمها طوال الأسبوع الماضى وهى فى دهشة من تلك الألفاظ التى تسب بها الآخرين متسائلة بأنها لم تسمع طوال الأسبوع الماضى عند "ماما جين" مثل هذه الألفاظ، بل أن ماما "جين" تتمتع بصوت رقيق خفيض كما أن "بابا " دوفان هو الآخر رقيق الصوت واشم كل رائحة طيبة فى منزلهم، هل هذا يكفى بأن اقضي بعض الأيام معهم فى المنصورة ثم آتى إلى بلدتى كى ألاعب فاطمة وفكيهه وست أبوها وأشاهد أمى واخواتى أما أبى الحبيب فسوف أشاهده كل يوم فى المنصورة

عند مروره من أمام فيلا "تيس" التى أقيم بها معهما ابتسمت مع ملاكها وهى تستعد لأن تصحب أباها إلى المنصورة غدا وتمنى نفسها باللعب مع بربارة.

صباح اليوم التالى جلست على عربة الخس بعد أن انتهى عوف من تحميل بضاعته مثل كل يوم وبذل جهدا كبيرا، طلب من زوجته أن تعد له كوبا من الشاى، نهرته بشدة أمام ابنته قائلة:

. اعملها أنت .. أنت مافيش منك فايدة وعامل زى الخيله الكدابه ..

ابتسم لها كعادته وغادر قائلاً:

. صباحنا ورد إن شاء الله.

شاهدت أباها سائرا بجوار العربة ولم يركب بجوارها، سألته لماذا لا تركب بدلا من سيرك هكذا عدة كيلومترات ومثلها بداخل المدينة .. أجاب بكل بساطة بأنه لا يرغب فى أن يثقل الحمولة على حماره .. ويوضح لها هذا المعنى بطريقته:

ـ شوفى يا سعاد يا بنتى .. ما هو الحمار ده زينا بيتعب .. ايوه والنبى تلاجى الحمار من دوول علشان غلبان ومش بيعرف يتكلم لما يتعب يعمل ايه؟ يروح دوغرى بارك فى الأرض وميمشيشى .. زعلان ماهو ابن ناس .. أمال!! هو جه منين؟ .. ماهو له أب وأم زيتنا .. روح زينا .. وربنا وصانا على إننا ناخد بالنا من الحمير ومن الجطط والكلاب .. وساعات يابت يا سعاد بيكون الحمير

والجطط والكلاب دوول ملايكه .. أى والله، ملايكه وربنا بعتهم علشان يشوف الناس المفتريين اللى بيبهدلوهم واللى يعمل كده والعياذ بالله يسخطه ربنا .. تعرفى الواد عكاشه اللى شغال فى الوحدة المجمعه بيجول انه راح مصر وشاف المساخيط اللى كانوا بيضربوا الحمير وربنا سخطهم حجر، شفتى الرحمه بالحيوان مهمه ازاى، خاللى بالك وأوعى تضربى الكلب اللى عند الخوجاية لأرجع الاجيكى مسخوطة حجر، فاهمه يا سعاد؟

. حاضر يابا.

***

جلس مسيو دوفان وزوجته هذا الصباح لتناول إفطارهما وسمعا صوت عوف .. الخس اللوز .. نظر دوفان إليها قائلاً:

. مش ناويه تسأليه عن سعاد؟

ـ أنا اخجل بأن أتسبب بالضيق لهذا الرجل كل يوم بهذا السؤال المتكرر، يقف أمامى لا يعرف كيف يجيبنى وكلمة واحدة على لسانه .. بخير يا ست هانم .

سمعا جرس الفيلا الداخلى واستأذن عم نوبى؛ نظرت إليه مدام جين:

. ايوه نوبى فيه إيه؟

. سعاد يا ست هانم؛ تركا الطعام وسألته جين باهتمام:

. ماله سؤاد يا نوبى؟ اكلم وكول "قول" فيه إيه يا راجل آجوز.

ـ سعاد يا ست هانم واجفه بره الفيلا مع أبوها عوف، وقفت جين فجأة وتتساءل:

ـ أنت بتكول إيه يا نوبى؟ أنت بتهرف "بتخرف"؟وقف دوفان بجوارها ثم تحرك الإثنان إلى خارج الباب وبحديقة الفيلا شاهدا سعاد من خلال السور الحديدى تقف مع والدها خارج السور وبربارة تقف خلف السور تنبح وتهز ذيلها ومجرد أن شاهدتهما بربارة قفزت تجرى حولهما، نظرت جين إلى زوجها ضاغطة على يديه بشدة وبصوت مرتفع قائلة:

. دوفان هيبيى .. تفلتى عادت ثانية.

أسرع نوبى لفتح باب الحديقة حيث أندفعت الطفلة فقابلتها بربارة وقفزت عليها ووقعا معا فوق الحشائش بين ضحكاتها ونباح بربارة، انحنت جين فوقها تقبلها وسعاد تمسك بخصلات شعرها وتقبلها قائلة "بونجور ماما" ثم نظرت إلى دوفان الذى وقف يشاهد أغرب موقف إنسانى كما قال لأحد أصدقائه بعد ذلك .. قالت "بونجور بابا " اقترب منها وقبلها مثل ما قبلت جين واجتمع الأربعة الزوج والزوجة والطفلة وبربارة فى دائرة حب قوية ونظر إليهم عم نوبى سعيداً وسمعوا من على بُعد صوت عوف .. مناديا " الخس اللوز" لقد ترك الرجل طفلته مع عائلتها الثانية سعيدة؛ لقد شاهد

وسمع وشعر بهذا الحب.

اعتذر دوفان لنائبه فى البنك طالبا منه إدارة العمل هذا اليوم لأنه فى استقبال شخصية هامة واعتقد نائبه وهو فرنسى أيضا باحتمال وجود القنصل الفرنسى فى ضيافة مسيو دوفان فأرسل فى طلب السائق يستفسر منه عن الشخصية الهامة التى ينتظرها المدير فى فيلته، عندما اخبره السائق بالحقيقة التى شاهدها منذ ساعة إعتقد أن هذا السائق يتناول الكحوليات أو المخدرات مثل باقى السائقين لأنه لم يصدق شيئا مما قاله وهو يعلم مقدار جدية مسيو دوفان والتزام زوجته جين.

قضت الأسرة هذا اليوم فى مرح بعد أن قامت الطاهية بعمل الحجر الصحى على الطفلة وأخرجت من ملابسها وشعرها هذه الكائنات الموجودة بمنزلهم والتى لا تريد مفارقة هؤلاء الفقراء.

## ارتباط سعاد بالعائلة

بات واضحاً بعد عودة الطفلة إلى فيلا "نيس" أنها قد تبدلت وتغيرت وفارقتها الوساوس والهواجس والحنين الزائد لعائلتها، فقد إعتادت على الحياة مع الزوجين ومن يعمل معهم وارتبطت بهم مدام جين ومسيو دوفان وبربارة وعم نوبى والطاهى عبده وزوجته فريدة والسائق الخاص لمسيو دوفان، شعرت أن هؤلاء مثل أهلها ولا يقلون عنهم فى أى شيء، شعرت مدام "جين" بالسعادة البالغة عندما علمت من سعاد بأنها تنوى قضاء هذا الأسبوع معهم والعودة يوم الخميس مع والدها للبلدة ثم تعود إليهم يوم السبت المقبل مثل إجازة المدارس التى لم تذهب إليها هى أو أى أحد من اخواتها .

انشغلت سعاد بما يجرى فى المنزل سواء بالعطف الأبوى من مسيو دوفان أو الأمومة الرقيقة المتدفقة الحانية من مدام جين أو من اللعب واللهو مع صديقتها بربارة، أما جين فكان أمامها شيء هام تريد أن تقوم به وهو تعليم سعاد مفردات ومبادئ لغة بلدها واستفسر منها زوجها دوفان متسائلاً لماذا نبذل الجهد فى هذا وتعلمى بأن سعاد سوف تعود ثانية إلى عائلتها، أخبرته بأن العلم هو إهتمامى الأول كما أنى أشعر بان سعاد ستبقى معنا يا دوفان أسعده هذا قائلاً أنه يسأل الرب فى صلواته بأن ينعم الله عليه بها فقد ملأت عليه باقى يومه حتى أنه ترك القراءة وسماع الراديو

ليستمع لحديثها ويشاهدها وهى تلاعب بربارة.

غادرت سعاد فيلا نيس يوم الخميس مع والدها ثم عادت صباح السبت وقامت فريدة زوجة الطاهى للمرة الثالثة بنقلها للحجر الصحى فى الفيلا لتخلصها من مكاسب هذين اليومين والذى تأكدت بأن منزل عوف عامر بأصناف الحشرات الضارة لبنى الإنسان، انهمكت جين مع الطفلة فى مواصلة التعلم وزاد على هذا خروجهما معا للتريض على كورنيش النيل بالمدينة واصطحابها إلى المحلات والنادى الرياضى، أسعد هذا الطفلة خاصة أن جين لم تيأس من تعليم سعاد قواعد ومفردات لغتها الفرنسية فى الحديث وحُسن التصرف أثناء تناول الطعام والتى لم تهدأ عن القيام بها لتصحيح وضع موجود مع الطفلة بحكم النشأة والتعود.

نهاية الأسبوع لم تبدِ الطفلة الرغبة فى العودة إلى قريتهم بصحبة والدها والذى أسعده هذا واندهش عم نوبى من شعوره وتصرفه كأب، أفاد عوف بأنه يراها كل يوم ويلاحظ تقدمها ونظافتها وتحسن حالتها "وانحنى عليه قائلا":

ـ ياعم نوبى؛ لما ترجع البلد أمها بتبهدلها فى الزريبه وتتوسخ خليها هنا .. يا سلام على نعمة النضافة .. فيه حد يطول يعيش فى النضافة والعز ده؟!!

أيقن عوف أن إبنته تعلم وتشعر أين تكمن مصلحتها وما الفائدة

من عودتها لتهان بعد ساعتين وتجرى دون حذاء بحوارى القرية المترية.

علمت أمها أن بعض أبناء البلدة يدور حديث هامس بينهم بأن سعاد بنت عوف تعمل خادمة فى البندر وتقوم بغسل الصحون وتنام على الأرض وتأكل بقايا طعام أسيادها؛ تلصصت أمها من وراء تلك الأقاويل وتفوه به على ابنتها بهذا الحديث حتى علمت من وراء هذه الوشاية فأقامت الدنيا ولم تقعدها وانشبت أظافرها فى جسد تلك السيدة ولم تتركها إلا بعد أن أشفت غليلها فيها كما قال البعض.

مضى شهران منذ انضمام سعاد إلى أسرة "جين ودوفان" والعيش معهما، لم تفارق الأسرة إلا أياما قلائل ومضى عليها أكثر من شهر لم تبد خلاله أى رغبة فى زيارة قريتها مكتفية بمشاهدة والدها يوميا أثناء بيعه لبضاعته أمام فيلا "نيس" وسألته ذات مرة عن حال أمها وأخواتها فطمأنها على حالهم وفى آخر لقاء أخبرها بأن والدتها لم تتشاجر مع أحد من الجيران منذ ثلاثة أيام ويعتقد بأنها مريضه ويفكر فى عرضها على الحكيم فى الاسبتالية .. فأضحكها هذا.

أصبحت سعاد هى الشغل الشاغل لجميع الأفراد بالفيلا سواء أصحابها أو العاملين عندهم، زوجة الطاهى"فريدة" تقوم على

رعايتها ونظافتها كما تتابعها المدام "جين" أما الطاهى فيستفسر منها عما ترغبه من طعام ويلبى احتياجها قبل السيدة جين والسيد دوفان، أما عم نوبى فهو الذى ينبهها إلى أن والدها قادم أو أنه أرسل إليها بزر بطاطا أو قطعة عسلية فتغمرها الفرحة بأى شئ تتلقاه منه، أما بربارة فهى الأخت الغير طبيعية للطفلة، لا تفارقها وتنام بجوارها وتلاعبها واصبحت العلاقة بينهما هى علاقة صديقتين أحداهما تنطق العربية والأخرى تنطق لغة لا يفهما سوى سليمان الحكيم، أصبح واضحا أن التفاهم بينهما لا يختلف عليه إثنان، فإذا امسكت الطفلة بالكرة تجرى بربارة وتقف بالجهة المقابلة لتحضرها إليها ثم تقذفها .. وهكذا .. حتى إذا نامت سعاد بحديقة الفيلا أو على احد الكراسى اسرعت بربارة بإخبار السيدة جين أو فريدة بقليل من النباح وتشير بفمها جهة الغرفة أو المكان الذى به سعاد، بل أصبح تحرك بربارة بدونها يعنى بأن سعاد مشغولة بالحمام أو النوم أو الطعام .

***

اما عن حال أسرة عوف فقد كانوا سعداء بما يأتى من وراء سعاد من مال، فوالدها يعمل فى بيع الخس ولا يعود بأكثر من جنيه كل أسبوع وهذا مكسبه بعد كل هذا الجهد، فإذا حصل من وراء طفلته على ما يساوى نصف مكسبه الشهرى دون أى مجهود

فهذا يساعد على رفع مستوى معيشتهم فى ذلك الزمان، كما أن إبنته تعيش حياة راقية سعيدة وكل من شاهدها بعد مُضى شهر على إقامتها عند مدام "جين" أدرك أنها ازدادت بهاء ورقة وجمالا وأنها لا تمت إلى عوف وزوجته بأى صلة.

***

أصبح من الطبيعى أن تخرج سعاد وبربارة للعب بجوار الفيلا والشوارع المحيطة بها، فالمنطقة راقية وبها العديد من الأجانب والمصريين الذين يتقلدون وظائف رفيعة ومن أصحاب الأعمال كان باديا حُسن المستوى الاقتصادى الذى يتمتع به أهل الحى وهم جميعا من أصحاب الفيلات وكل واحد منهم لديه بواب وحارس للفيلا وسيارة وسائق، يسود الحى الأمان ويعمل به كثير من أبناء النوبة فى الحراسة لما لهم من جلد وأمانة تجعل الناس راغبة فى أن يعملوا لديهم وهم أناس ذووا حياء وخجل كما أنهم يتعاونون معا فى مطاردة أى مجرم أو معتد على الحى، لأنهم يد واحدة.

هذا يوم عادى مثل الأيام السابقة، سعاد ترتدى فستانها الرقيق وحذاء وشرابا ابيض اللون وشعرها مصفف بعناية مع جمالها الطبيعى وبربارة لا تفارقها، فهى مثل ظلها، ابتعدوا كثيراً بداخل الشارع الخلفى يلعبان معا، الهدوء يلف المنطقة؛ فجأة سُمع صوت قوى ارتعدوا له وخافت الطفلة وبكت وتوترت

ونبحت بربارة وزاد من هذا التوتر والخوف أن شاهدا كلبا مسرعاً قريباً منهما والدماء تنزف منه، بكت الطفلة وزاد توتر بربارة وأثناء ذلك أقبل نحوهم شاب يقود عربة كارو صغيرة يجرها حمار ومخصصة لنقل القمامة ولها صندوق من الصاج، نبه الطفلة قائلاً:

. خبى نفسك بسرعة، عساكر البوليس بيموتوا الكلاب والقطط.

أثناء هذا شاهدت جنديين من الشرطة قادمين من الجهة الأخرى من الشارع وفى يد كل واحد منهما بندقية والبعض قادم من الجهة الأخرى ومعه بنادق أيضا، لقد أصبحت محاصرة مع الكلب ولا تعى أو تفهم هل هى المقصودة أم كلبها أم كلاهما كل هذا اثار فزعها، أشار لها الشاب بالقفز فى عربة القمامة استبقت بربارة سعاد لأن الجنديين اقتربا منهما بينما ساعد الشاب سعاد للاختباء فى صندوق القمامة التى تحمله العربة الكارو الصغيرة، بعد قليل سمع نفس الصوت القوى ونباح كلب يعوى دليلا على أنه أصيب أو على وشك الموت، أوضح لها الشاب أن هذا صوت الرصاص الذى يطلقه الجنود على الكلاب وقتلها، اندفعت بربارة محتجة على هذا بإرسال بعض نباحها، طلب الشاب من سعاد أن تسكت الكلب كى لا يقتلها العساكر بالسلاح الذى معهم، أشارت لها سعاد بالصمت

فامتثلت بربارة لها.

أسرع عم نوبى على أصوات طلقات الرصاص وارتعدت مدام "جين" فى الفيلا من تلك الأصوات والهرج والمرج بالشارع مع تداخله بنباح الكلاب، أسرع نوبى يدور بالشوارع بحثا عن الطفلة وكلبها دون جدوى، استفسر من جميع أبناء العمومة دون نتيجة والبعض ذكر له أنه شاهدها تسير فى هذا الاتجاه فاتجه إليه وسأل أحد بلدياته هناك فاخبره أنه شاهدها تسير باتجاه آخر فعاد من حيث أتى.

كانت السيدة جين تطلب حضور نوبى دون مجيب فطلبت من "عبده" الطاهى التخلص من ملابس المطبخ والبحث عنه، بعد ثلاث ساعات من البحث عاد الطباخ ونوبى بخُفى حنين ليبلغا السيدة بفقد الطفلة وكلبها، وقفت جين قليلا فى دهشة لا تصدق أن يحدث هذا فى تلك المدينة الهادئة الوديعة، خرجت بصحبة فريدة ونوبى للتجول بكل الشوارع والطرقات الجانبية دون جدوى تورمت قدماها ولكنها لم تعبأ بهذا فقد تورم قلبها وكاد أن ينزف دماء ساخنة ودمعت عيناها ولم تجف.

عادت ثانية إلى فيلتها وأبلغت مسيو دوفان الذى اخبرها بأنه قادم للتو ولهذا قام بعدة اتصالات مع أصدقائه وبعض رجال الأمن، عاد إلى فيلته ولحقت به عدة سيارات بها عدد من رجال

الشرطة الذين طرحوا عليهم ببعض الأسئلة الكثيرة وحصلوا على بعض صور شخصية لسعاد.

مازال الشاب يحضر القمامة ويضعها بصندوق العربة والطفلة وبربارة تتخلصان منها بقدر الإمكان والشاب يخبرهما بألا يخافا وما عليهما سوى الاختباء وعدم الظهور، أشارت إليه الطفلة بالموافقة بينما بربارة تداعب وجه سعاد ببعض اللعقات السريعة.

***

توقف الشاب بعد أن سار مسافة كبيرة خارج المدينة ولم تعد سعاد تشاهد أى مبان منذ وقت مضى، سمعت صوته الشاب قائلاً: "هييس" وهذا يعنى أمرا للحمار بالتوقف وهى من الريف وتعلم هذا، نظر إليها كى يساعدها:

ـ وصلنا والمنطقة هنا آمنة ولا تخافى أنتِ وكلبك؛ قفز الكلب بجوارها بعد خروجهما من الصندوق؛ تساءلت:

. فين ماما جين؟

ـ بكره ح أعدى عليها وأعرفها أنك هنا معانا ومعاكى كلبك كمان مبسوطه؟ أضافت للتوضيح:

. بربارة صاحبتى!!

. معلوم؛ برباره صاحبتك

نظرت إلى المكان وشعرت بالغربه ولا تعلم ماهى تلك المنطقة

ولماذا كل تلك الأكوام من القمامة؟ سارت مع بربارة خلف جامع القمامة حتى وصلوا إلى منزل صغير ردئ المظهر من الخارج بالداخل صفق جامع القمامة قائلاً:

. يا معلم .. مش عايز ترد .. بلاش يا معلم .. يا معلمه .. سمع صوت نسائى حاني قادما من الداخل.

. ايوه يا إللى بتنده .. مين أنت؟

. انا بريزة .. بريزة أبو شامه يا معلمه .. اكملت حديثها وما زالت بالداخل.

. جيتك إيه ياد يا بريزه .. شطبت بدرى ليه .. من قلة الشغل.

اقبلت المعلمة وهى سيدة بدينه نسبيا فى مقتبل الأربعين من عمرها ترتدى قميص نوم خفيف وبعض الأساور الذهبية فى يديها وتسمع وسوستها "صوتهم" حينما تحرك يديها عامدة ذلك كى ينتبه الناس لما تحمله من مصاغ، شاهدت الطفلة فضربت على صدرها بدهشة.

. يخرب بيت اهلك يا بريزه، جيبت البت الحلوة دى منين؟

. الزمن رماها عليا يا معلمه، دى شغل بتاع شهر، عايز الحلاوة .. ضحكت واقتربت من الطفلة وخلعت عنها السلسة الذهبية والحلق أيضا.

. تعالى ياروح أمك، تعالى اسمك إيه؟

- سعاد .. قبلتها واخرجت ورقة نقدية من صدرها وناولتها للشاب الذى احتج مشيرا إليها.

- إيه يا معلمة، دا شوية الدهب اللى علقتيهم يسوا الشيء الفلانى تقومى تتمخطرى وتطلعى خمسه جنيه .. ليه؟ جايبلك دكر بط!!

. خدها ورجعها لأهلها، دى فيها مؤبد يا حمار يا ابن نبويه القرعه هات ياله الفلوس، امتنع الشاب طالبا الزيادة .. ضحكت وغمزت بعينيها.

. الليلة دية بتاعتك، البت "جولنار"رجعت تانى وسابت الواد حرنكش النتن.

نزعت المعلمة كل ملابس الطفلة وأبدلتها بملابس قديمة لديها واخبرتها بأنها فعلت ذلك حتى لا يعرفها رجال البوليس المجرمين ويقتلوها مثل ما قتلوا الكلاب، ربتت على كتفها:

- اهدي يا بنتى، ونامى مستريحة أنتِ وكلبك.

أعدت المعلمة صندوقا من الكرتون وناولته لها بعد أن فردته ومعه قطعة قماش بالية طالبة منها النوم، سألتها سعاد عن الطعام تنبهت المعلمة بأن الطفلة حديثة عليهم ولا تعلم نظامهم، تركتها فترة زمنية قصيرة ثم عادت تحمل بعض كسرات خبز ذات رائحة مقززة وطبق ألمنيوم صغير به بقايا ملوخية، حاولت الصغيرة تناول الطعام لكنه كان غير محبب لنفسها فتركته لكلبتها الجائعة.

هكذا سُرقت الطفلة وُخلعت عنها ثيابها وستنام أرضا فوق كرتونه وقدم لها طعام فاسد قد يقضى على حياتها، كل تلك المعلومات اخبرها به الواد "صُنقر" وهو طفل صغير فى نفس عمر سعاد والذى يسكن بهذا المكان منذ عام، لقد فُقد فى مولد السيد البدوى ولا يعرف كيف حضر هنا بعد أن نام فى المولد منذ عام ولا يعرف أين أسرته نظرا لأن أسرته ممن يذهبون إلى الموالد ويقيمون "غرزة" لتقديم الشاى والقهوة والجوزة.

أجهشت الطفلة بالبكاء واثار هذا بربارة التى ظلت تنبح بجوارها مما دفع بأحد الأطفال إلى ضربها وطردها من الحجرة التى تأوى اثني عشر طفل وطفلة اعمارهم مابين الثامنة والعاشرة .. بكل الطرق استطاعت بربارة العودة والجلوس بجوار سعاد وعندما حاول الأطفال طردها ثانية هاجمتهم مما اضطرهم إلى الابتعاد عنها بينما طلبت سعاد من بربارة الهدوء ونامت بجوارها حتى الصباح.

فى الصباح فزعت الطفلة على صوت أجش يلقى عليهم بكلمات وسباب أقبح من التى سمعتها من أمها والبعض منه لم تسمعه من قبل، نهض الأطفال واحتجت بربارة على تلك المعاملة بإطلاق بعض نباحها مما أزعج جابر صاحب الصوت الأجش الذى هوى عليها بعصا معه مخصصة لإدارة عمله، صرخت بربارة

وجرت تعوى وقد اثرت الضربة على أحد أقدامها الخلفية حيث كانت تجرى عرجاء ودفع هذا بسعاد لسب جابر والهجوم عليه لضربه ولكنها لم تستطع فأبدلت ذلك بعضة قوية من أسنانها فزع منها الرجل وناولها ضربة بقدمه فى خصرها قذفت بها بعيدا فأسرع إليها صنقر حيث شاهد الدماء تنزف منها.

صرخ أحد الأطفال باكيا وتجمعوا حولها لكن جابرا طاح فيهم بعصاه وتنبهت بربارة بأن صديقتها أصابها شيء ما فتحاملت عائدة الى المكان وشاهدتها نائمة على جانبها والدماء على وجهها ولم تتحرك فتأكد لها أنها ماتت وأن ما حدث لها مثلما حدث بالأمس لبنى جلدتها فقفزت رغم مابها من ألم على وجه جابر ناشبة فيه مخالبها فصرخ واسرع المعلم والمعلمة إليه فشاهداه ينزف بغزارة والطفلة ملقاة تنزف منها الدماء أيضا.

شعرت المعلمة بأن كارثة ستحدق بهم، لقد ماتت الطفلة فى هذا المكان الذى هو ملكهم ومكان عملهم، كل الجهات الرسمية فى بلدية المدينة تعلم هذا وأمامها عشرة أطفال سيشهدون بما تم ما هو الحل؟ صرخت فى الأطفال طالبة منهم التوجه للعمل ثم عادت لسعاد محاولة إفاقتها من إغمائها متمنية ذلك، أفاقت الطفلة وأسعد هذا المعلمة التى احتضنتها وحملتها إلى حجرتها تطعمها ووضعت بعض "البن" فوق الجرح حتى جف وتوقف النزيف.

أما عن جابر فما زال يتألم مما أصابه من صديقتها بربارة رغم مابه من عيوب فهو طويل القامة لا يعرف شيئا عن النظافة وكل ملابسه ويديه غاية فى القذارة يسير حافى القدمين لا يكف عن تدخين السجائر وأسنانه طويلة وغير منتظمة تشبه أسنان الجمل العجوز وشعر رأسه غير مكتمل نظرا لإصابته بمرض جلدى فى فروة الرأس واحتمال انه القراع الانجليزي وصوته به حشرجة وكثيرا ما يبصق بجواره أما مكان إعاشته فبداخل أكوام القمامة حيث يفترش كرتونه ويلتحف ببطانية قديمة عثر عليه بداخل القمامة، لا يعرف أسرته فقد احضره أحد رجال المعلم أبو ركبة منذ سبعة أعوام وكان فى الثانية عشرة من عمره بعد أن عثر عليه أسفل كوبرى طلخا مريضا مما ألم به من جوع وبرد ودفع المعلم ثمنا للرجل الذى جلب جابرا من أسفل الكوبرى تعميرتي حشيش من نفس النوع الذى يقوم المعلم بتوزيعه على زبائنه بواسطة رجاله من جامعى القمامة.

***

فى نفس هذا اليوم الذى اختطفت فيه سعاد كان عوف سائرا أمام الفيلا ينادى على بضاعته .. "الخس اللوز" . اضطرب كلّ من دوفان وجين، ماذا سيقولان لهذا الأب؟ ماذا سيكون شعوره ورد فعله؟ بعد قليل حضر عم نوبى مصطحبا عوف كما أمره سيده

هذا الصباح، تحدث دوفان إلى عوف ولم يكن الرجلان قد إلتقى به من قبل، شرح دوفان ما حدث لابنته سعاد بعد أن سرد أمامه مقدمة طويلة ثم اخبره بأن رجال الأمن يقومون بعملهم خير قيام و..... سرح عوف أثناء حديث مسيو دوفان ولم يعد يسمع أو يشاهد الرجل، فأصبح لا يعى ماذا حدث لكن المؤكد أن طفلته فقدت وراحت دون رجعه، أخيرا قال له دوفان:

- مسيو آووف .. مس تزعل واهنا هنعمل كل سيئ مهم علسان الطفلة سؤاد.

غادرهما الرجل دون أن يقول شيئا وجلس على الرصيف بعيداً عن الفيلا باكيا مردداً:

- "عليه العوض ومنه العوض" اقبل عليه نوبى وبعض أبناء عمومته لمحاولة الأخذ بيده والتهدئة من حاله لكنه لم يكن سامعا ولا مجيبا لهم؛ غادرهم فى هذا اليوم ولم يعد بعدها، لقد ظل عوف فى منزله لا يغادره عازفا عن كل شيء إلا وقت صلاة الجمعة بينما استقبلت أمها الخبر بكل حزن وسرعان ما لملمت أشلاءها خاصة بعد أن شاهدت الحالة التى عليه زوجها والمتردية وما آل اليه حالهم، لقد فقدنا طفلتنا، ما الذى بأيدينا أن نفعله الكثير من أبناء الفقراء يصابون ويموتون دون طرح أى سؤال .. لماذا؟ فالأرض فسيحة فمن يموت يدفن وعويل وصراخ ليومين

وينتهى كل شيء ويحصل على لقب مرحوم، هذه هى حياتنا نحن الفقراء.

***

بعد عدة أيام تماثلت الطفلة للشفاء وانضمت إلى الأطفال الذى يعملون فى فرز القمامة، كل طفل مزود بسيخ حديد صغير بطول المسطرة يفرز به الزبالة، البعض مسئول عن تجميع المعادن من حديد وصفيح ونحاس والمنيوم، البعض الآخر مسئول عن الكرتون والورق وآخرين عن الخبز وجزء عن عظام الحيوانات أو الملابس الملقاة بالقمامة، العمل من الصباح حتى المساء أو حتى يتم الانتهاء من فرز القمامة.

## حنفى أبو ركبة

يدير تلك الإمبراطورية المعلم "حنفى أبو ركبة" وهو رجل فى الخمسين من العمر نحيف البدن ذو شارب طويل وغير متصل أى بدون شعر أسفل الأنف خشن الصوت ذو نبرة عالية كما أنه هادئ الحوار فى المناقشة وهو من نفس عينة الأطفال الذين يعملون لديه، فقد سرقه احد المجرمين نظير فدية من والده وإلا قتله ولكن الأب لم يدفع له الفدية فقذف به فى النيل ولكن احد الصيادين شاهد ذلك فأسرع إليه وأنقذه وعاش مع هذا الرجل وأسرته عامين وكان عمره وقتها خمسة أعوام وأخيرا عرض عليه أحد أصدقائه أن يأخذه للمعلم سعدون العفش المسئول عن مقلب القمامة وعمل معه وتزوج ابنته جمالات وبعد وفاة المعلم تقدم إلى العمل لديه فتاتان شقيقتان فتزوجهما دفعة واحدة وعندما نبهه بعض معارفه إلى أن ذلك محرم ولا يجوز قال كلمته المأثورة كل شيء عند أبو ركبة يجوز وهكذا أصبح يجمع بين الأختين.

كان كل همه فى الحياة هو المال والنساء والمخدرات وله من الزوجات ثلاث كل واحدة منهن مسئولة عن تخصص ما ومعروف عنه القتل دون إنذار، فإذا شعر أن أحدا يخونه أو يسرقه ودون أن ينبهه أو يعاتبه يفاجئ الجميع بأن هذا الشخص قد اختفى فى نفس الليلة إما بالسم أو الغرق بالنيل ولا يترك أى أدلة تفصح عن

شخصيته خاصة أن من يعمل معه هم من الخارجين على القانون فلا يستطيعون الإقتراب من رجال الشرطة، غالبية عماله من الأطفال الصغار المخطوفين من أمهاتهم أثناء انشغالهن فى السوق أو أثناء الرغى فى الوالد أو مثل حالة سعاد أثناء اللعب أمام المنزل أو فى الحارة، هؤلاء يعملون بلا أجر سوى النوم أرضا واكل حلة أرز ومثلها خضار.

لا توجد دورات مياه ولا يستطيع أحد منهم المخاطرة بترك المكان فصبيانه حول المنطقة وفى كل مكان بالإضافة إلى بعض الكلاب البرية الخطرة على الغرباء.

ليلا تعود سعاد بعد مجهود العمل المضنى وتتناول الطعام السيئ الإعداد ثم تتجه لتنام على الكرتونة المخصصة لها كما كان هناك نظام صارم فى عدم تعدى الأطفال بعضهم على بعض حتى يضمن المعلم أبو ركبة الاهتمام بالعمل وعدم المشاجرة والمناطحة، العقاب من المعلم كان معروفا وهو عدة لسعات من سيخ حديد ساخن تكوى به أقدام هؤلاء الأطفال، نامت الطفلة باكية مثلها مثل كل من حولها فجميعهم فقدوا الأهل والحرية ولكن الشيء السعيد فى حياتهم هو تقاربهم معا لأن ظروفهم متشابهة.

أرسل عمدة قرية أبوسيف فى طلب عوف عندما علم أنه يجلس فى منزله ولا يغادره منذ أسبوع ولم يصدق حكاية أن ابنته

اختطفت فى البندر وعندما واجهه العمدة بما علم به أكد له عوف ذلك وأن هذا نابع من كرهه للحياة بسبب فقد ابنته سعاد، ثار عليه العمدة محذرا اياه بأنه سيبلغ النقطة بذلك إذا أصر على هذا اللغو الذى يتبعه فى كل مرة ولكن الرجل صمم على كلامه وأنه لا يعبأ بالنقطة ولا بالمركز، شعر العمدة بأن الرجل كفر .. كيف يقول هذا؟ ألا يعلم هذا المغفل أن النقطة والمركز هم خلفاء الله فى الأرض ومن يغضبون عليه فالموت أهون من غضبهم.

اقتاده ثلاثة من الخفر الى النقطة وجريمته هى التهاون والتقليل من قيمة رجال النقطة والمركز ثم ادعاءه بأن ابنته سعاد اختطفت فى البندر وهذه هى المرة الثانية التى يفتعلها هذا الرجل فى خلال عدة أشهر .. استقبل استقبال الفاتحين من رجال الشرطة فتورم قفاه وسمع من الشتائم والسباب ما لم يعتد عليه أولاد الحرام فى الشارع وبعدها حول الى المركز حيث لديه صلاحيات أكثر فتورم جسده وغير جنسه وأطلق عليه اسم نسائى ومسح بلاط المركز لمدة أسبوع ومسح أحذية الضباط والصولات ونام فى عراء المركز متسائلا: لماذا كل هذا؟ انا المجنى عليه .. انا لست الجانى، لقد فقدت ابنتي وأعامل هكذا؟ دمعت عيون الرجل أثناء مسح بلاط المركز وسماعه للكلمات المهينه فى حقه وحق أسرته بكلمات هى أبعد عن الدين والإنسانية

أخيرا جاءت المعلومات من مديرية أمن الدقهلية تفيد بأن سعاد عوف فقدت واحتمال أنها اختطفت وأن الرجل لم يبلغ بلاغا كاذبا افرج عنه من المركز فعاد إلى النقطة التى أحضرته ليظل بها يومين ليكمل مسيرة الاهانة ثم بعدها سلم إلى عمدة البلدة الذى حذره من الإتيان بهذا الفعل مرة ثانية بينما عوف يحاول إفهامه بأنه لا فى المرة الأولى ولا الثانية تقدم ببلاغ وانه مظلوم لكن العمدة لم يفهم كلامه وتركه لحال سبيله ليعود إلى منزله بعد أن قضى قرابة العشرة أيام فى عذاب مع رجال السلطة.

أما عن زوجته فقد أصابتها الحيرة ما بين حال رجلها وما بين الاكتساب والاسترزاق لكى تُكمل الأسرة مسيرة حياتها وقد استعوضت ربها فى صغيرتها وأصبحت تنام كل ليلة والدموع تملأ عينيها حسرة عليها متسائلة:

ـ يا ترى انتى فين يا سعاد؟ يا ترى بتكلى وبتشربى؟ وتزداد دموعها على صغيرتها التى تجاوزت الأعوام السبعة بعدة شهور وما زالت صغيرة تحتاج عون أمها.

***

السيدة جين أصبحت تحدث نفسها وتؤنبها على ما أقدمت عليه وإنها كانت ترنو إلى تقدم الطفلة والعناية بها وافصحت عن هذا لإحدى صديقاتها فى المدينة بأنها كانت تمنى نفسها بتربية

الطفلة وتعليمها كى تتخرج من الجامعة وتزوجها وليس هذا اختطافا من أسرتها بل مساعدة لتلك الأسرة ولهذه الطفلة والتى كانت تتنبأ لها بأنها ذات قدرات كبيرة ولها من الذكاء الطبيعى الذى يساعدها على ذلك.

أما عن مسيو دوفان فكان فى حيرة من حال الطفلة وشعر بتأنيب الضمير وأنه وزوجته كانوا السبب الرئيسى فى فقدها ومازال يفكر فى حالها وما سوف تؤول إليه فى المستقبل وهل مازالت على قيد الحياة أم لاقت ربها.

مضت ثلاثة أسابيع على اختفاء الطفلة ولا اثر لها ورجال الشرطة أعيتهم كل السبل فلم يعثروا على أى دليل يساعدهم فى معرفة مكان اختفائها، أخيرا وصل الخبر اليقين بالعثور على الطفلة غريقة فى احد أفرع نهر النيل وتحلل جزء من جسدها والغريقة فى نفس عمر الطفلة وتحمل الكثير من صفاتها لكن وجهها غير واضح المعالم من تأثير بقائها فى المياه فترة تعدت الثلاثة أيام.

***

أغمى على مدام جين وهاجمها المرض النفسى وألقت بكل المسئولية على عاتقها ولم تقو على الصمود فمرضت ونقلت الى المستشفى وشعر مسيو دوفان أنه سيفقد زوجته بعد أن فقد الطفلة وكلبه .. سُلم جثمان الطفلة الغريقة إلى أسرتها ومعها تصريح

الدفن وأقيم الصراخ والعويل وأذيعت القصص والأقاويل عن وفاتها وأن السبب فى ذلك يعود إلى عصابة اختطفتها حتى تستطيع أن تفتح بها كنزا وهذه طلبات الجان بأنه لابد من أن تسال دماء طفلة صغيرة لم تبلغ الأعوام العشرة على الكنز، دفن جثمانها فى مدافن الصدقة بالقرية لأن عائلتها لا تمتلك مدفنا وورى جسدها التراب وخرجت الحكايات عن أن عفريت سعاد يظهر فى بعض الأحيان وشاهدته بعض النساء ليلاً وأصبح الناس يتحدثون عن عفريت سعاد وعوف يمنى نفسه بأن يشاهد عفريت إبنته كى يسأله عن حالها بعد أن أفقدته الحسرة واللوعة اتزانه.

***

عادت مدام جين إلى فيلتها بعد أن تحسنت حالتها كما ظهرت بربارة والتى إن شاهدتها جين حتى شعرت ما ألم بالطفلة .. فلقد كانت بربارة تعرج وملطخة بالأوساخ وهزيلة الجسد وتعوى فحملتها إلى العيادة البيطرية والتى تم علاجها وعلاج كسر قدمها السفلى من ضربة شومة جابر فى بداية اختطاف سعاد وطلب منها الطبيب عدم السماح لها بالحركة لمدة شهرين حتى يلتئم الكسر أصبحت بربارة قعيدة الفيلا تحاول إفهام جين رسالة ما ولكنها لا تفهمها وكلما مر جامع القمامة بريزه من أمام الفيلا تعوى وتحاول الإفلات من قيدها دون جدوى.

ثلاثة أشهر مضت منذ اختفاء سعاد وتناسى الناس فى البلدة ما حدث للطفلة ولكن مسيو دوفان وزوجته لم تفقدهم تلك الأيام تذكر ما حدث لها مع استمرارهم فى مساعدة أسرتها ماديا كما عاد عوف إلى السير ببضاعته "الخس اللوز" فكانت جين تخرج لدى سماع صوته لتراه وتقول: كاننى أرى سعاد وتندفع فى بكائها وهى تشاهد العاب الطفلة وملابسها وتحتضن تلك الملابس باكية دامعة لقد فارق هذه الأسرة كل معنى للحياة السعيدة ولم تغادر عقولهم ذكراها.

***

اما عن سعاد فهى تعمل مع زملائها الأطفال المساكين الذين أوقعهم حظهم السيئ مع هؤلاء الناس إما إهمالا من ذويهم أو اختطافهم مثل ما حدث معها، أثناء عمل سعاد سمعت صوت نباح كلب فنظرت خلفها فشاهدت بربارة بعد أن عولجت وضمد جراحها أسرعت إليها تقبلها ولعبا معا حيث كانت سعيدة بقدومها، شاهدهم جابر فأطلق لسانه بالسباب فهربت بربارة واختفت بين أكوام القمامة حتى ابتعد بعد هذا عادت ثانية للعب والاحتفال بصديقتها.

استمر هذا الحال يوميا، تقفز بربارة من فوق السور الحديدى للفيلا لتقطع عدة كيلومترات حتى تصل إلى صديقتها وهى الحيوان

الأبكم الذى لا يستطيع أن يتكلم ولكنها تعلم سرا هاما يفيد تلك الطفلة كما يفيد أسرتها والأهم هو إنقاذ تلك السيدة الحزينة التى تحملت تلك المأساة على عاتقها.

فى أحد الأيام والأمطار تهطل بغزارة توقف العمل فى أكوام القمامة، جلس الأطفال متلاصقى الأجساد اتقاء البرودة الشديدة فالملابس البالية التى يرتدونها لا تقيهم تلك البرودة التى تهاجمهم سواء من الطقس أو من أرضية الحجرة البعيدة عن كل الشروط الصحية الملائمة للمعيشة كل يروى للآخرين قصته، روت سعاد ما حدث لها وأعاد صُنقر روايته وفقده لأسرته فى المولد أيضا "استر " اخبرتهم بأنها لم تر أسرتها، فقد تربت فى هذا المكان وأن المعلمة لواحظ تقول لها أنها ابنة حرام أى ليس لها أب أو أم وكانت تتسأل: ما هى ابنة الحرام؟ ويجيب صنقر بأن أبناء الحرام هم الذين تلدهم أمهاتهم من غير زواج.

فتاة أخرى فى عامها الرابع عشر ظهرت عليها علامات الأنوثة واسمها "رشيدة" توضح لهم بأنها جاءت هنا بعد أن طردها زوج أمها من المنزل وحلف عليها طلاق بالتلاته بأنها لن تبقى معهم يوما واحدا فطلبت منى أمى أن اذهب لبيت خالتى؛ توجهت لبيت خالتى القريب من بيت أمى فأمرها زوجها بطردى قائلاً: أنا مش فاتحها تكية .. خرجت من بيت خالتى عائدة الى بيت أمى لكنها

رفضت دخولى بعد أن صفعها زوجها أمامى على وجهها وبكت وصرخت فارتعدت وعدوت أجرى فى الشارع وكان عمرى وقتها تسعة أعوام فقابلنى رجل وحكيت له قصتى فأخذنى من يدى وذهب بى الى أحد اماكن التخديم موصيا على المسئول الذى سألنى هل سبق لى الخدمة فى منزل قبل هذا من دونه فأخبرته بأنه لم يسبق لى الخدمة فارسلنى لأحد دور الملاجئ لأعمل هناك.

عملت عدة أشهر لكن احدى المشرفات كانت عنيفة وتسببت فى طردى فخرجت هائمة من الملجأ واثناء سيرى قابلتنى المعلمة لواحظ وسألتنى عن حالى وعن سبب بكائى وشاهدتنى بملابسى القديمة البالية، كنت فى أشد حالات الجوع وأسير حافية فى برد الشتاء؛ عرضت علىّ العمل بهذا المكان وها أنا أقيم وأعمل.

جاء الدور على اكبرهم عمرا .. "اسمي جولنار أمير" تزوجت وعمرى ثمانية عشرة عاما من عامل فى شركة كفر الدوار للنسيج كنا سعداء وعشنا ثلاثة أعوام دون انجاب ولاحظت أن زوجى قد تململ من هذا وفى إحدى الأيام اخبرنى بأنه يفكر فى الزواج لأننى لا أنجب، أجبته على الفور واحتمال انك لا تنجب، صفعنى على وجهى رغم أنه حينما قال بأنى لم أنجب لم اصفعه لكنه استباح لنفسه أن يقلل من شأنى وعندما رددت عليه بمثلها لم يعجبه هذا فصفعنى، لماذا يعاملنى هكذا؟ حدثت مشاكل بيننا وحاول

الأصدقاء والأهل حلها، نتصالح يوما ونتخاصم أياما، علمت من صديقة لى بأن زوجى قد تزوج من امرأة أخرى كانت متزوجة وتوفى زوجها منذ عدة أشهر ولها ثلاثة أطفال ويذهب ليقيم معها فى شقتها بعض الأيام، تضايقت وقررت أن أواجهه.

استمع لى بكل هدوء وكان ذلك فى يوم شديد الحرارة وكنت ارتدى ملابس خفيفة تشف ما تحت جسدى من ملامح النساء التى نتباهى بها، أخذ بيدى إلى باب الشقة بكل هدوء، تساءلت: ماذا تريد؟ اجابنى: اسمع صوت دق خافت على الباب واعتقد أنه شقيقك، افتحي له الباب، صدقته وفتحت الباب نصف فتحه فإذا به يدفعنى خارج الشقة ويغلق الباب خلفى ووجدت نفسى أقف أمام الباب شبه عارية والناس طلوعا ونزولا ومازلت بتلك الملابس الخفيفة، شعرت بخجل شديد، أدق على الباب صارخة طالبة منه فتحه كى ارتدى ثيابى فلم يستجب لرجائى وتوسلاتى وظللت على هذه الحال، تجمع الجيران وتبرع احدهم فأحضر عباءة سترنى بها بعد أن نزع زوجى عنى كل حيائى، بكيت واستضافتنى إحدى العائلات حتى الصباح حتى وصل أخى بعد أن علم بما حدث حاملا لى ملابس ارتديها.

أثناء ارتداء ملابسى أقبل زوجى وحادث الجار الذى أقيم عنده وأيضا أخى معلنا لهما أنه طلقنى طلاقا بائنا لا رجعة فيه ثم أعاد

قراره أمام الجميع الجيران، لم تعد هناك علاقة بينى وبينه، أيقنت ما وصل إليه حالى، اصطحبني أخى إلى منزله وبعد عدة أيام سمعت شجارا بينه وبين زوجته تخبره قائلة: يا انا يا أختك .. حاول أن يستدر رحمتها بأننا أيتام وليس لها أحد بالدنيا بعد الله سواى لكن دون جدوى .. فكرت بأن منزل اخى الحبيب سوف ينهار وتغادره زوجته .. ماذا افعل؟ .. خرجت ليلا من المنزل وهمت على وجهى بالشوارع وعملت فى مدينة دمنور كخادمة اعمل طوال النهار نظير البيات والطعام ورغم هذا طردتنى سيدة المنزل لأنها شاهدت زوجها أثناء محاولة الاعتداء علىّ فى المطبخ الذى أنام به، لم أطاوعه ولم أذهب إليه .. انا المظلومة ولكنها طردتنى .. وإثناء مغادرتى المنزل ربتت هذه السيدة على كتفى قائلة: "جلنار" .. انا آسفة لهذا لكنه زوجى .. هل استطيع طرد زوجى؟ ليس معقولا وانا اعلم انك مظلومة ولكن الظالم لا أستطيع أن أتصرف معه وإلا قلب علىّ الأمور وجعلنى انا المطرودة فانا لا املك شيئا فى هذا المنزل .. كل شىء باسمه فالمال الذى نعيش عليه يحصل عليه من عمله حتى الأبناء الذى لا يتحمل المشقة في إنجابهم سوى دقائق قليلة وانا احملهم شهورا وأرعاهم أعواما طويلة يكتبون باسمه وبطاقة التموين والكهرباء وكل شىء باسمه .. "جلنار" صدقينى نحن النساء ليس لنا قيمة سوى أن نعمل خادمات فى منازل أزواجنا

وخليلات فى أسرتهم وأمهات لأطفالهم، الاعتراض مرفوض لأى عمل مشين يقومون به .. تخيلى لو أن زوجا شاهد زوجته تذهب إلى خادمه أو سائقه فى مخدعه تطلب النوم معه .. ماذا يحدث؟ .. أنت تعرفين .. الموت قتلاً .. والفضيحة لها ولعائلتها أو الطلاق والطرد فى الشارع، "جلنار" أنتِ جميلة وصغيرة وستجدين مثل زوجى كثيرين، تزوجى وابعدي نفسك عن هذا الطريق الخطير والذى إذا استطعتِ أن تحمى نفسك منه مرة فلن تستطيعى حماية نفسك منه مرات أخرى .. الأرملة والمطلقة هى أشهى شيء للذئاب من البشر.. احترسى والله معكِ.

غادرت شقتها وانا متأكدة من صدق حديثها ولكن كيف انفذه؟ أريد إجابة منكم على هذا السؤال .. أسمعتم أن فتاة أو سيدة ذهبت تقول لرجل اننى اطلب الزواج منك؟ !! يجيب البعض .. لا لم نسمع والبعض استسلم للضحك .. إذن كيف أتصرف؟ سارت بى الأمور سيئة؛ فعملت بمزرعة للدواجن مع زوج وزوجته وأخبرت الزوجة بعد عدة أيام من عملى بنصيحة السيدة فأيدتها وقررت مساعدتى، فى احدى الأيام جاءت تخبرنى بأنها عثرت على شخص راغب فى الزواج بى وعلى علتى وهى "عدم الإنجاب" سعدت بانى سأجد بغيتى، حضر الرجل وبدا لى أنه متقدم فى العمر وليس به وسامة تجعل السيدة منا تسعد بقربه، قلت فى نفسى

اعتبره مثل الدواء فهو مهم وغير مرغوب، تزوجنا لأربعة أشهر شاهدت فيها صنوف العذاب لم يكن إنسانا طبيعيا، يسأل البعض: . سأخبركم رغم أن البعض منكم صغارا لكن ذلك هاما حتى تأخذوا حذركم، يحتاج إلى المخدرات حتى يستطيع أن يقوم بعمله كزوج .. وهذا يدفعه إلى الصرف والإنفاق على هذا الكيف!! كل هذا ضايقنى وزادت المشاكل وأخيرا طلبت منه الطلاق وأمام صاحب المزرعة الذى كان وسيطا قال الرجل:

." هو انا اجوزتك علشان أطلقك" . سأله صديقه.

ـ وضح ما تقول .. أخبرنا بأنه تحايل على ذلك وأتى بشخص يرتدى ملابس المشايخ ومعه دفتر التموين للبقال المجاور لهم واثنين من أصحاب الكيف وقام بتلك الخديعة .. احبائى ليست الخديعة على فقط لكنها على الله الذى أمرنا بهذا .. طرده صديقة وبصق عليه داعيا الله ان ينتقم منه .. أخيرا وصلت إلى هنا عندما كنت اعمل خادمة فى أحد المنازل وعرض علىّ "بريزة" بان أحضر للعمل هنا ونتزوج لكنه مخادع يريد جسدا لامرأة دون زواج لعنة الله عليهم جميعا .. اندفعت فى بكاء مؤلم والتف من حولها الأطفال يقدمون لها مواساتهم ويقبلونها، انتبهت من حزنها وقالت: كلنا يد واحده ولابد أن ندافع عن بعض .. اتفقنا .. أجاب الجميع بصوت واحد... اتفقنا.

## الدفاع عن النفس

سارت الأمور بهؤلاء التعساء الذين شعروا بأن المجتمع ظلمهم وأن الجميع وقفوا ضدهم وهاهم يعيشون فى أدنى مستوى بين البشر، بل أنهم يشعرون أنهم اقل من ذلك فهم مثل الكلاب الضالة تعيش على بقايا غذاء الآخرين على الفتات وما يلفظه المجتمع من القاذورات الذى يتخلص منه وهم المنوط بهم أن يستقبلوا ذلك الفتات وتلك القمامة .. أصبحوا يجلسون كل مساء يتحدثون مع بعضهم البعض فيشعرون بالطمأنينة على أنفسهم بعد أن تكاتفوا واتحدوا ضد أى معتد عليهم .. بل زاد من ذلك بأن عينوا أحدهم مراقبا بالخارج حتى لا يفاجأوا بهجوم عليهم أو قدوم شخص مباغت لا يرغبون به.

اقترحت عليهم "جلنار" بأن يعينوا أحدا منهم ليصبح قريبا من منزل المعلم ليستمع لكل الأخبار ويحملها لهم حتى يعلموا ما ينوون أن يفعلوه بهم ويعرفوا أسرارهم حتى يمكنهم الضغط عليهم بتلك الأسرار .. اقترحت رشيدة إرسال سعاد لهذه المهمة فهى صغيرة الحجم ويمكنها الاختباء خلف أكوام الحجارة الملقاة أمام منزل المعلم .. جلست "جلنار" توضح للطفلة كيفية التنصت وسماع الأخبار وألا تنسى شيئا مما يقال كما أخبرتها بأنها سوف ترسل لها احدى الفتيات كل فترة لتطمئن عليها وتنقل عنها الأخبار

أولا بأول .. اصطحبتها رشيدة وحددت لها المكان الذى يجب أن تختبىء به .. جلست الطفلة ليلاً تسمع ما يقال بداخل المنزل ولكن النعاس غلبها فنامت دون أن تعلم أى شيء؛ علمت رشيدة بذلك عندما ذهبت لتتفقد مكان الطفلة فى عملها فشاهدتها تغط فى نومها؛ قررت "جلنار" عدم تكليف سعاد بأى شيء الآن فهى صغيرة ويمكنها التعلم بمرافقة شخص أخر أكبر منها عمرا، لهذا أرسلت "استر" بديلا عنها.

مضى أسبوعان على هذا النظام وأصبحت "جولنار" تعلم الكثير عن المعلم وتجارته واتباعه ومدى مخالفتهم للقانون سواء فى تدخين المخدرات وشرائها من بعض التجار وتوزيعها على زبائنه والتى يحملها عمال جامعى القمامة فى أحياء المدينة.

صباح اليوم التالى هطلت الأمطار بشدة فترك الجميع العمل وذهبوا إلى الحجرة يستأنسون ببعضهم البعض واعدت لهم جلنار الشاى وبعض الحلوى التى عُثر عليها بداخل صندوق ملقى بالقمامة ورغم سوء مظهره ورائحته فإن طعمه مستساغ لمن على شاكلتهم.

اخبرهم "الناضروجى" بقدوم جابر ومعه شخصان؛ استقبلتهم جولنار خارج الحجرة متسائلة:

- ايوه يا جابر، عايز إيه؟ المطره لسه بتنزل؛ ابتسم لها ابتسامة

صفراء بعد أن آجال بصره فى أجزاء جسدها:

ـ أبدا .. زملا جدد انضموا لكم .. تركهما عائدا إلى مخبئه بين أكوام القمامة ليدخن سيجارة محشوة بالحشيش كعادته.

. أهلا وسهلا، هكذا رحبت بهما جلنار ودخلت بهما على أصدقائها .. قامت بالتعارف بين القادمين والمتواجدين معها، انا جلنار .. وده صنقر .. ودى استر ودى رشيدة ودى سعاد وده حليم والتلاته اللى فى الآخر هما رئيفة ووداد وصباح .. وداوود اللى شوفتوه واقف بره ..

جلست جلنار بجوارهما تمعن النظر؛ صبى فى الخامسة عشر من عمرة وفتاة تقريبا فى نفس العمر.

. انتم مين؟ أجاب الصبى:

ـ انا يعقوب. ودى سارة وتعتبر زى اختى .. رحبوا بهما؛ أضافت جلنار كوبين من الشاى؛ ثم اكملت حديثها أثناء انشغالها بإعداده.

. إحنا هنا زى الأخوات، كل اللى فى الاوضة دى بس؛ وزى ما انتم شاعرين كلنا ضعاف وملناش قيمة فى الدنيا وأهلنا تخلوا عنا ورمونا فى الشارع مع الكلاب وفيه منا اعتدوا عليهم بالضرب، مين ح يحمى واحده طردها أهلها فى الشارع؟! علشان كده كلنا أيد واحده واى واحد فينا يتعرض للأذى كلنا نسيب اللى فى أيدنا ونروح له ونحميه، مفهوم يا اخواتى وحبايبى.

أسعدت هذه المقدمة وهذا الترحيب الوافدين الجديدين؛ تكلم الوافد الجديد:

. اسمي يعقوب وانا فى الإعدادية هددنى أبويا وقال: لو سقطت يا ابن الكلب ح يكون نهار أمك اسود عليا الطلاق بالتلاته لادبحك زى ما دبحت عبده الحنش وأنت عارف أبوك قلبه ميت، فاهم ياله؟ من أربع تشهر ظهرت النتيجة وسقطت فى الامتحان، طيب ماهو ابويا حيطلق مراته أو يدبحنى وأنا عارف أنه مجرم والناس بتأجره لقتل اللى مضايقين منهم، هربت وما رجعتش البيت، على فكرة أمى ماتت من خمس سنيين وهو مجوز واحده تانيه غيرها وهيا ست طيبه وتبقى أم "وأشار جهة سارة" وعلشان كده أنا حبيتها وقلت بقى لى اخت، المهم قابلت سارة فى الشارع ولما عرفت نيتى قالت أنا كمان هربانه معاك، سارة ح تقول على مشكلتها لكم رحب بها الموجودين؛ تحدثت:

. انا عمرى فى نفس عمر يعقوب وأبوه يبقى جوز أمى وهو راجل مجرم وشديد ويعمل أى حاجه، يعقوب قال لى مافيش غير أننا نهرب، يوم ظهور النتيجة هربت قبل ما أعرف أن يعقوب ناوي يهرب، اخدت هدوم له وليا وسيبنا البلد ورحنا اشتغلنا فى مصنع طوب لحد ما جه جابر بعربيه كارو محمله كاوتش قديم عشان بتوع الطوب يولعوه لتحميص الطوب، شافنا وقال الشغلة دية متعبه

عليكم، ما تيجو تشتغلوا معانا، قال لنا على نوع الشغل، هربنا معاه ووصلنا النهاردة وهو عارف أن يعقوب اخويا، ادى كل حكايتنا.

طلبت جولنار من الأولاد الذين معها جمع عدد من أسياخ الحديد وإحضارها دون علم جابر أو غيره، تجمع عدد من أسياخ الحديد ووزعت على كل الموجودين سيخا باستثناء سعاد لصغر عمرها وقالت جلنار لهم.

. كل واحد معاه سلاح، أى هجوم علينا نقوم بالرد وضرب المهاجم .. فاهمين؟ اجابوا:

. فاهمين يا جولنار.

استمرت الأحوال على وتيرتها، عمل شاق طوال النهار وجلوس للتسامر معا يستمعون خلاله لحكايات وقصص غريبة لكن ما كان يجمعهم هو الاضطهاد من الأهل والأقارب والجميع يعتقد أنهم بعيدون عن الله لأنهم لا يعلمون شيئا عنه سوى الاسم وبعض ما يذكره الآخرون أمامهم وهذا بسبب الأهل الغير متمسكين بدينهم.

***

فى القرية الصغيرة مضى أكثر من خمسة أشهر على وفاة الطفلة سعاد ونسى الجميع أمرها ولم تعد تخطر على بال أحد منهم سوى ذكراها التى تتردد عندما تشاهد أمها سنية بعض صديقاتها فتتذكر بأن ابنتها كانت تلاعبهن وأثر هذا عليها فتلاشى تقريبا سوء

سلوكها واصبحت حميمة مع الناس خاصة السيدات وأشفق البعض عليها والبعض شعر بأن الله انتقم منها لسوء سلوكها؛ أما عوف فهو مثل أبى الهول لم يتغير أو يتبدل سوى بعض الشيب الذى غزا شعر رأسه واكتفى الرجل وهو فى هذا الوضع بأن يعمل مثل الماكينة طول النهار ثم يعود إلى منزله ليحصل على راحته بعد عناء يوم شاق، أدى هذا التغير فى أخلاق وتصرفات الأم سنية فتعاطفت بعض السيدات معها مما دفع باحداهن إلى أن تخطب ابنتها زينب لابنها عبد السميع واسعد هذا الأسرة بأن سمعوا زغاريد الفرح التى لم تسمع بمنزلهم منذ زواج شقيقتها الكبرى عزيزة منذ ثلاثة اعوام.

***

تماثلت مدام جين للشفاء كما عاد دوفان إلى عمله وعادت كل الأمور إلى طبيعتها وكأن سعادا لم تكن هنا أو أنها جاءت للزيارة وعادت إلى منزلها ولكن الذى لم يهدأ ولم ينس ما حدث كانت بربارة التى لم تهدأ طوال تلك الفترة خاصة عندما تشاهد "بريزه" الزيال؛ أصبحت بربارة أشد عودا وعادت إلى سابق حالتها تجرى خلف مدام جين أثناء تريضها فى الشارع.

فى احدى تلك المرات اختفت بربارة من أمام نظر مدام جين ودهشت السيدة لهذا وهى تعلم أن بربارة لا تطيق الابتعاد عنها

وتذكرت تلك الفترة أثناء وجود سعاد فى فيلتها حيث تتشغل بها بربارة لكن بعد وفاة سعاد أصبحت هى الرفيق والصديق لها تتساءل:

. أين أنتِ بربارة؟

عادت إلى فيلتها مستاءة وأخبرت زوجة الطاهى فريدة مما دفعها للضحك فسألتها جين عما يضحكها فأخبرت السيدة بأن بربارة أعجبت بكلب وذهبت إليه كى تنجب وتحضر لنا كلاباً صغيرة.

دهشت السيدة وفات عليها نداء الغريزة فى غمار اهتمامها بسعاد وما لحق بهم بعد وفاتها، ابتسمت وارتضت بهذا التحليل لاختفاء بربارة والتى من حقها حسب الإعلان العالمى لحقوق الإنسان أن تختار شريك حياتها ووالد أطفالها، آه بربارة؛ ستنجب لنا كلابا صغيرة؛ انتظرتها كى تعود لتخبرها بالخبر الصادق من تصرفاتها وهل وفقت إلى عريس محترم أو أنها فشلت وهى التى كانت ترغب فى أن تقرنها بعريس يقطن فى فيلا بمنطقة جاردن سيتى بالقاهرة عند صديقتها "داينيليه" لكن كل شيء قسمه ونصيب آه سعاد حبيبتى، كنت أتمنى من الرب أن يحفظك وتعيشى معى وتتعلمى وتكبرى وازوجك مثل بربارة التى سوف تتزوج من حبيب القلب؛ آه .. اتبعتها ببعض الدموع السريعة.

أثناء جلوس جميع الأصدقاء من المضطهدين فى الأرض

كما اطلق عليهم إبن المدارس يعقوب هذا الإسم شاهدوا كلبا صغير الحجم ابيض اللون ذو شكل جميل يتفرس وجوه الموجودين وهز زيله ثم قفز فوق سعاد يلعق وجهها بكل عنف والفتاة تقبله سعيدة بعودته وتحدثه "وى شان وى برباره .. جيتيم .. وى كونتنت .. مامه بب باه" قبلته وكل ما حدثته به أنها قالت: أهلا كلبى أهلا بربارة انا سعيدة واحبك وماما وبابا ؛ نظروا إليها يسألونها ماذا تقولين؟ فإجابتهم بما تعنيه واستفسروا منها عن عائلتها فأخبرتهم بأنها ابنة الخواجه دوفان ويعمل فى البنك.

سألتها جولنار؛ كيف حضرتِ إلى هنا؟ فأخبرتهم بأن "بريزه" خطفها وأتى بها إلى هنا أثناء لعبها أمام الفيلا؛ أشارت الزعيمة لهم بأن سعاد ليست فى حاجة لأن تعيش بيننا، فلها عائلة تحبها واقترح عليكم أن نعيدها ثانية إليهم وبهذا نستفيد من وجودها إذا احتجنا لأى شيء وفى نفس الوقت نتخلص من هذا القذر بريزه؛ ما رأيكم؟ أيدوا رأيها لكن كيف نساعدها على الهرب؟ أشارت إلى يعقوب مستفسره منه بأنك ابن مدارس فأنت المتعلم بيننا.

. حليم .. احضر ورقة وقلما.

. من أين؟

القمامة مملوءة بالأوراق، تخير أنظفها واحضرها وأنتِ يا سارة توجد مجموعة أقلام مكسورة فى حجرتى أحضرتها من القمامة

تخيرى أحسنها واتى به .. يعقوب .. أمامك الورقة والقلم واكتب .. أنا سعاد مخطوفه في مستودع قمامة المدينة طرف المعلم أبو ركبة واللي خطفني بريزه الزبال من أمام الفيلا .. تعالي ماما وبابا ساعدوني .. لفت الورقة جيدا وربطتها على ظهر بربارة وطلبت من سعاد أن تأمرها بالعودة إلى المنزل.

همست سعاد فى أذنها بينما بربارة ترفض تريد البقاء معها أخيرا أقنعتها فقفزت بربارة خارج الحجرة تعدو فى اتجاه المنزل ولكن كلاب المنطقة هاجموها وسمع الأطفال وجولنار أصوات نباح الكلاب، قالت لهم جولنار: الآن اهجموا على كلاب أبو ركبة وأنقذوا كلب سعاد؛ اندفع الجميع حاملين الأسياخ الحديدية واتجهوا نحو كلاب أبو ركبة ضربا بالأسياخ فقتلوا واحدا وأصابوا ثلاثة وهرب الباقون بينما أنقذوا بربارة من أنياب تلك الكلاب المفترسة أسرعت بربارة إلى الفيلا وشعرت بتعب والدماء تتساقط من جسدها، جلست تستريح قليلا فشعرت بأن أجلها قد دنا فأسرعت الخطى تريد استباق الزمن، هاهي فى أول الشارع تجرى نابحة فسمع صوتها عم نوبى فأسرع لإخبار الهانم التى امرته بفتح الباب حتى تتشرف بدخول تلك العروس انتظارا لأطفالها القادمين صاحت صارخة.

. آه دوفان هبيبى. ستغمر الفيلا بعد عدة أسهر نباح كلاب صغيرة

أبناء هبيبتى بربارة.

دخلت بربارة إلى الفيلا ونوبى يتبعها مندهشا من شكلها وهيأتها والدماء تنزف منها، صعدت للدور العلوى وقفزت إلى داخل حجرة سعاد وفوق سريرها نبحت والدماء مازالت تسيل منها وجين وفريدة زوجة الطاهى لحقا بها، حاولت جين تهدئتها لكن بربارة مازالت تعوى وتنبح وانخفض صوتها واشارت بفمها جهة الدولاب ففتحته جين فقفزت بربارة إليه وأمسكت بإحدى فساتين سعاد بأسنانها ونامت فوقه ووضعت انفها بين طياته وصوتها بائس شبه باكٍ طلبت جين من فريدة إرسال زوجها لإحضار الطبيب.

وقفت بربارة ثانية واشارت بفمها إلى الربطة التى على جانبها والتى بها الورقة وفريدة تخبر السيدة بأنها تريد منا فتح الورقة لكن جين كانت فى شغل شاغل لحال بربارة، نامت بربارة فوق فستان سعاد ثانية، سكتت قليلا ثم نبحت نبحه قوية تلاها نبحه خافتة وأسلمت الروح بين بكاء جين وفريدة خلال هذا حضر دوفان وشاهد أثار الدماء فى مدخل الفيلا وصعد إلى أعلا بعد أن أوضح له عم نوبى السبب فشاهد بربارة نائمة فى سرير سعاد وفوق فستانها والدماء تغلفه بعد أن لفظت أنفاسها.

## إنقاذ سعاد

مضى أسبوع منذ وفاة بربارة والسيدة جين مندهشة لما حدث منها واعتقدت بان تصرف بربارة بهذه الكيفية لهو دليل أكيد على حبها لصديقتها الراحلة سعاد ولهذا فقد أرادت أن يكون آخر شيء تشم رائحته رائحة الصديقة الراحلة، تتحدث جين مع فريدة زوجة الطاهى وتسألها بعض الأسئلة لتعلم منها هل احتفظت بفستان سعاد الذى ماتت فوقه بربارة وعليه دمائها:

. ده فستان مهم كتير فريدة لأنه بتاع مرهومه سؤاد ومرهومه بربارة هافظ عليه كتير.

ـ حاضر يا ست هانم، والورقة اللى كانت مع بربارة حنعمل فيها إيه؟ اندهشت جين:

. عن اى ورقة تتحدثين؟ ذهبت فريدة واحضرتها.

فتحت جين الورقة ولم تستطع فهم الجملة المكتوبة، نادت عبده الطباخ؛ فهى تعلم أنه يستطيع القرأة والكتابة.

. أبده .. افته "افتح" ورقة.

تناول عبده الورقة وفتحها وقرأ ما بها ثم أعاد القراءة غير قادر على استيعاب ما تحتويه بينما جين تنظر له ولزوجته، انفكت عقدة لسانه واوضح للمدام ما هو مكتوب بالورقة، دهشت لما قاله وعلقت . إيه دى أبدة .. كلام مس كويس .. ازاى تفل سؤاد يرجع من عند

الرب ويكتب كلام زى دى.

اقترح عبده الاستفسار من الخواجة دوفان، امسكت جين بالتليفون وطلبت دوفان واخبرته بالفرنسية بما قراءه عبده، طلب منها الحفاظ على الورقة وعدم إخبار أحد؛ بعد نصف ساعة حضر دوفان وتبعه سيارتان للشرطة وبعد أن قام رجال الشرطة بتحية السيدة تسلموا الورقة وقرؤها، اتصل احدهم ببلدية المنصورة للاستفسار عن حنفى أبو ركبة فأفادوا بأنه مسئول القمامة فى المدينة ويقيم فى مقلب القمامة بخارج المدينة، حضر بعض المرشدين المسئولين عن المنطقة واخبروهم بأن المدعو بريزة هو المسئول عن تلك المنطقة؛ بعد قليل حضر أحد المخبرين يعلن لقائده بان المدعو بريزه وصل أول الشارع، تركوه حتى آخر النهار وتبعوه إلى المنطقة؛ هاجمت قوة من الشرطة المكان والقوا القبض على كل المتواجدين به، بمديرية الأمن استقبلت جين ودوفان سعاد بالدهشة والبكاء غير مصدقين أنها مازالت على قيد الحياة.

تم الإفراج عن باقى المقبوض عليهم وحول بريزه للمحاكمة هكذا عادت سعاد إلى الفيلا مقابل فقد بربارة حياتها وكأنه كتب على ذلك الحيوان أن يدفع ثمن ضرر الإنسان لبنى الإنسان.

حزنت الطفلة على فقد بربارة بينما طغت السعادة التى لا توصف على كلّ من جين ودوفان؛ فى اليوم التالى بعد أن قامت

فريدة بفتح الحجر الصحى للمرة الرابعة لسعاد ونظافتها بعد الشهور الستة التى قضتها مع هؤلاء؛ توجهت سعاد للراحة بسريرها؛ نهضت من نومها مبكرا كما إعتادت بمقلب القمامة فشعرت بها جين فأسرعت إليها تلاعبها وتقبلها بشغف لتعوضها عن الشهور التى فقدتها خلالها، ارتدت ملابسها الأنيقة وخرجت للتنزه بحديقة الفيلا وقد نما عودها أكثر من السابق، بعد قليل سمعت النداء السحرى .. الخس اللوز .. أسرعت إلى الباب لتفاجأ بأن أباها قد عبر من أمام الفيلا وأصبح أمام باب الفيلا المجاور، خرجت من باب الحديقة مسرعه خلفه قائلة:

ـ آبا .. آبا .. إلتفت جهة الصوت فشاهد سعاد فتشبث بيده فى أفريز العربة الكارو لكى لا يسقط أرضا وابتسم قائلاً:

. الله اكبر.. والله نفسى أشوفك ياعم عفريت .. جالولى فى البلد انك بتطلع للناس وجلت فى بالى انا أولى بعفريت بنتى .. بس عفريت نضيف والخالق الناطج شبه المرحومة، دى أول مره أشوف عفريت يطلع بالنهار .. يا الله .. عشان أنت عفريت سعاد وصغير زيها انا حاجبلك "وزه" (احضر خسايه صغيره) .. اتفضل ياعم عفريت وجل لسعاد ابوكى وأمك وأخواتك بيحبوكى كتير.

. وقفت الطفلة تستمع لأبيها معتقدة أنه يداعبها، أقبلت نحوه:

. آبا .. بوسنى يابا!! عاد الرجل للخلف متوترا خائفا.

- بسم الله الرحمن الرحيم .. ايه ياعم عفريت .. انتو حداكم بوس وحجات زى اللى حدانا ؟ اقبل عم نوبى فإستجار به عوف شاكيا له عفريت سعاد ابنته، ضحك الرجل قائلا:

- عفريت إيه يا راجل يا مخبول!! دى بنتك سعاد لاجيناها امبارح بنتك لسه عايشه ياعوف؛ لم يستطع الرجل التماسك فسقط أرضا جالسا بجوار حماره باكيا وتجمع أبناء عمومة نوبى يهدؤن من روعه خاصة بعد أن ألقت سعاد بجسدها الصغير عليه تقبله وتقبل دموعه المنهمرة، تنبه واستوعب المفاجأة؛ طلبت منه أن تعود معه فى المساء لتشاهد أمها وإخوتها، طلب منها تأجيل ذلك للغد كى يمهد لهذا الأمر عند أمها بدلا من أن تصاب بمرض من شدة المفاجأة خاصة أن الجميع يعلمون انكِ توفيت أطاعت والدها بعد ان أخذت الوزة "الخساية الصغيرة" معها لتأكلها.

***

عاد عوف قبل المساء إلى منزله منشرح الصدر وفى أحسن أحواله وبعد أن تناول طعامه طلب من ابنته منيرة أن تطلب إخوتها للحضور بالعشية "بعد العشاء" حضرت كل من زينب وعزيزة وحامد من دورهم، جلس يمازحهم كعادته وزوجته صامتة بعد أن افقدها الحزن مواهبها فى الضجيج والخناق، قطع الصمت صوته الهادئ:

. تجولوا إيه لو حد جال أن أختكم سعاد لسه صاحيه وحيه؟ تبادلوا

النظرات وتحدث حامد:

. مش حنجول حاجه يابا لأنه كلام مش يعجل ويدخل العجل؛ الله يرحمها، ماتت واندفنت، حيه ازاى؟ تحدثت سنية:

. يظهر ان أبوكم رجع تانى للدخان زى أيام زمان ودخن جوزه فيها مخدرات ونفوخه ملخبط حبتين.

ضحك قائلا:

. اسمعوا اللى حُصل النهارده.

قص عليهم ما جرى بينه وبين سعاد ورغبتها بأن تعود لزيارتهم وهو الذى اجل هذا للغد، قاطعوا حديثه غير مصدقين وهم فى دهشة والبعض استفسر عن حالتها حتى انتهى اللقاء مع أسرته وقد أيقنوا بان شقيقتهم على قيد الحياة وتساءل حامد:

. أمال المدفونة تبجى مين؟ أجابه عوف:

. العلم عند الله.

مساء اليوم التالى حضرت سعاد لزيارة أسرتها ولم يعلم بخبر عودتها سواهم فقط؛ فقد حضرت وقت الظهيرة ولم يكن هناك بشر فى الشارع وقتها لارتفاع درجة الحرارة كما لم تخبر أسرتها أحدا من أهل القرية بحديث والدها ليس خوفا من الحسد لكن اعتقاداً بأن عوف مريض ويهلوس فلا داعى لأن يعلم الناس أن مخه ضرب وبيلخبط ويقول أنه شاف ابنته لعلمهم بمدى حبه الشديد لها وقد

يدفع هذا بالعمدة إلى إرساله إلى نقطة الشرطة ويهان ويضرب كما حدث له سابقا.

كان استقبال العائلة لها استقبالا طيبا؛ احدى الجارات شاهدت سعادا فأغمى عليها وأخرى هربت إلى منزلها بعد أن أطلقت عدة صرخات عالية النبرة وحضر الناس وتجمع أهل القرية ليعلموا ما سبب تلك الصرخات، احدهم أسرع يخبر العمدة بأن عوف استطاع تحضير عفريت ابنته سعاد ويثير خوف الناس.

أرسل العمدة بإشارة إلى النقطة والمركز لعمل اللازم لأن الخفراءه وشيخهم يخشون التوجه لمنزل عوف وإلقاء القبض عليه خشية العفريت الذى معه؛ أسرع الناس فى البلدة بالاختباء وكل يعلم الآخر.

. عفريت سعاد بنت عوف، اجري يا جدع.

البعض حوصر فى الحقول وتخوف من العودة ليلا من هذا العفريت وأسرع الجميع بغلق أبواب دورهم والمحلات أغلقت أبوابها وحضرت ثلاث سيارات شرطة من المركز وغادرها أحد الضباط ممسكا بميكرفون صغير طالبا من عوف والعفريت تسليم أنفسهم اضطرب عوف ووضع يده على قفاه والتى أصبح يغطيها الكالو من شدة ما ضرب عليه فى المركز والنقطة، خرج عوف رافعا يديه وبجواره ابنته وما أن شاهدها بعض الجنود حتى أسرعوا بالهرب

ووجد الضابطان نفسيهما بمفردهما أمام عوف والعفريت فاضطربا فهم غرباء عن المديرية ولا يعلمان بحكاية العفاريت إلا من الروايات؛ اضطرب الضابطان وقال أحدهم.

- ياعم عوف؛ اسحب عفريتك وارجع وإحنا خلاص ملناش دعوه بيك بينما سقط العمدة أرضا مجرد أن شاهد عفريت سعاد؛ نهض بعدها ينفض التراب عن عباءته قائلاً:

- خلاص ياعوف، اصرف العفريت وحأكتب لك نص فدان، أحد الضباط نهره طالبا منه زيادتها إلى فدان؛ اقسم العمدة بشرف والده بأنه سيكتب له فدان.

حمل عوف ابنته على يده قائلاً:

. يا عالم .. امبارح مديرية الأمن فى المنصورة لجت بنتى مخطوفه مع شوية إصغار ورجعتها لى واللي ماتت واندفنت من ستة شهور دى معرفشى حاجه عنها، عفريت إيه وانس إيه .. دى بنتى جدامكم، حد فينا عمره شاف عفريت، ما عفريت غير بنى آدم.

تشجع البعض خاصة الضباط وازدادت شجاعتهم بعودة رجالهم تباعا بعد أن شاهدوا من على بعد أنه لم يحدث أى شيء غير عادى وبعد أن تأكد للجميع أن سعاد بنت عوف على قيد الحياة وعادت إلى بلدتها.

صافح رجال الشرطة عوف على سلامة ابنته وفتحت الأبواب

وتدفق الناس لدى سماعهم الخبر السعيد والبعض احضر مزاميره للاحتفال بعودة ابنة القرية إلى بيتها كما أقبلت صديقاتها وخاصة فاطمة وفكيهه وست أبوها للترحيب بصديقتهن؛ أمضت البلدة أمسية رائعة عم فيها الفرح كل منازل القرية واظهر العمدة كرمه وسخاءه بتوزيع الحلوى مع وعد بذبح عجل فى بداية الشهر العربى يوزع على فقراء البلدة بهذه المناسبة.

***

عادت سعاد إلى فيلا "نيس" بعد عدة أيام قضتها بين أسرتها وصديقاتها شعرت خلالها بالفرحة والسعادة مع أهلها واستقبلتها فريدة فى الحجر الصحى وقامت بالواجب معها، هاهى سعاد قد عادت ترافق "ماما" وبابا" فى جولاتهم والتى أضيف إليها السفر إلى القاهرة والبقاء بها يومان احتفالا بالعيد الوطنى الفرنسى وشاهدت الاحتفال وهم ينشدون الاغانى الوطنية رافعين الكؤوس قائلين "فيفا لا فرانس" تحيا فرنسا وبعض المدعوين يحيون مصر "فيفا لا جيبت" ..

على الجانب الآخر بمقلب القمامة تواجدت نقطة شرطة دائمة بعد القبض على بريزة وتعهد أبو ركبة بإبلاغ قوات الأمن بأى شخص جديد يقبل عليهم خاصة أن الباقين أدلو فى أقوالهم بأنهم هم الذين هربوا من عائلاتهم تحت الضغط والقهر وأنهم يعلمون كل

شيء عن أحوالهم بعكس سعاد التى كانت صغيرة جدا ولا تعلم شيئا ولا تستطيع الاعتماد على نفسها، أسعدت كل تلك الإجراءات "جولنار" حيث تخلصت من بريزة الذى حاول الاعتداء عليها أكثر من مرة كما أن جابراً والمعلم تحاشيا المشاكل خاصة مع تواجد رجال الشرطة فى المكان، أيقنت جولنار بأن خطتها صائبة وتجمعهم واتحادهم كان هو الأساس لكل ما حدث من نتائج.

***

أيقنت السيدة جين بان سعاد استوعبت كل ما اخبرتها به من مفردات اللغة ولهذا قررت أن تلحقها بمدرسة "نوتردام" لتعلم اللغة الفرنسية؛ حاولت مدام "دفريه" مديرة المدرسة معارضة ذلك لأن سعاد تعدى عمرها الثمانية أعوام ثم تراجعت أمام إصرار مدام جين .. صباح كل يوم ترافق سعاد "ماما" جين فى سيارتها وتذهب بها إلى المدرسة وتلتقى مع الأطفال والذين يتميزون بمستوى اجتماعي ومادى رفيع؛ انخرطت فى هذا السلك فاندمجت وتحولت للأفضل كما أصبحت تراها جين ودوفان اللذان شعرا بمدى تقدم الفتاة رقياً ودراسة وسلوكا؛ مضت الأيام بها مع تلك الأسرة الراقية التى قدمت يد العون والخير دون عائد مادى سوى عائد معنوى وهو التمتع بشعور الأمومة الذى كان طاغيا على السيدة جين وأشبعها وجود سعاد فتحسنت صحيا ونفسيا إلى ابعد مدى كلما

سمعت كلمة "ماما" من طفلتها سعاد وتشاهد وتراقب نموها وتقدمها؛ انعكس هذا عليها وعلى زوجها الذى شعر بأنه يحيا احلي أيام حياته هانئا مع زوجة رقيقة تحبه وطفلته سعاد التى يبث من خلالها مشاعر الأبوة الفياضة التى كان فى اشد الحاجة إليها؛ فهو بطبعه عاطفى رقيق المشاعر يعشق الحب والموسيقى.

***

عمت الفرحة القرية بالإضافة إلى أسرتها وبالأخص عندما كانت تذهب لزيارتهم بضع ساعات فى نهار يوم الجمعة ومعها السائق الخاص بمسيو دوفان ثم تعود آخر النهار كما كانت تحضر "ماما جين وبابا دوفان" فى بعض الزيارات؛ تلك الزيارات كانت تحمل معها الخير من ملابس وأقمشة وأطعمة ومساعدات مادية فانعكس هذا على الأسرة فتحسنت حالتهم الاقتصادية والاجتماعية لشقيقها وشقيقتها منيرة التى سوف تتزوج بعد عدة أشهر والتى إستطاع عوف أن يعد لها أثاثا كاملا بخلاف شقيقتيها اللتين كانت حالته المادية وقتها لا تسمح بأن يقدم يد المساعدة لهن وعلق بعض جيران سنية على هذا بأن ابنتها أصبحت سنيورة وزى بنات الأكابر فى البندر، وكان هذا حكما صحيحا لما شمل الطفلة من العناية وبما حباها الله من جمال طبيعى.

***

ترك عوف ابنته وديعة لدى مدام جين ومسيو دوفان دون أن يطالب بعودتها، كما أن الطفلة كبرت وبلغ عمرها عشرة أعوام واصبحت صبية جميلة وكما يقول المثل الشعبى بأن خراط البنات "خرطها" فزاد طولها وأصبحت تجيد الحديث بالفرنسية وتتصرف كأنها من بنات الأسر الارستقراطية وترافق اسرتها لأماكن لم تكن تعلم عنها أى شيء أو حتى تعلم بوجودها فى مصر، كما أن الفيلا يعمل بها الخادمة والطاهى والبواب والسائق والمال مُيسر ومتوفر والمدرسة الراقية بكل ما تحمله الكلمة من معانى.

***

نهاية عام ١٩٦١ صدرت القوانين الاشتراكية فى مصر وأممت الشركات ومُصرت البنوك وأصبح بنك باركيلز هو بنك الإسكندرية وأبدل العاملين فى هذا البنك بعاملين وموظفين مصريين وزحفت البيروقراطية والإهمال إليه وتبدل العملاء من رجال الأعمال والأجانب إلى موظفى القطاع العام والعمال؛ وبدلا من عملاء بنك يرتدون البدل والفساتين أصبح العملاء عمال وفلاحين غير مهتمين بنظافتهم أو ملابسهم وعمت ساحة البنك الجلاليب والطواقى والتلافيع والبلغ والشباشب والاطفال الصغار يرضعون من صدور أمهاتهم وساء الحديث وعمت القذارة والبلادة.

أخبرت إدارة البنك الرئيسى مسيو دوفان بأنه قد عُين رئيسا

لفرع البنك فى العاصمة التونسية (تونس) وعليه استلام عمله خلال شهر، انقلبت الأحوال أمامه وأمام زوجته وماهو الطريق الأمثل أمامهما، لم يكن هناك خيار أمامه فلابد أن ينفذ أمر النقل خلال هذا الشهر وإلا فُصل من البنك ولكن ما هو التصرف مع سعاد؟ هل سيصطحبها معه أو يتركها؟ وكانت إجابة سعاد لهما انا معكما طالما سأحضر إلى مصر لزيارة عائلتى، لم يؤخذ كلامها على محمل الجد؛ فمازالت صغيرة وبحكم القانون قاصر ولا تستطيع التصرف فى أمورها؛ كان من الواجب أخذ رأى والديها.

أرسل دوفان بسائقه لإحضار الأب والام مساء أحد الأيام، جاء الزوجان على عجل خوفا من أن يكون الخواجة غير راغب فى بقاء سعاد لديهما؛ عندما اخبرهما بما قررته إدارة البنك لم يمانعا فى أن تغادر ابنتهم مصر برفقة الزوجان إلى تونس وهذا الرأى كان مؤيدا لحديث ابنتهما، اندهش الزوجان من قرار الأب والأم وكان لابد من تصريح أمام الجهات الرسمية يسمح فيه لابنتهما بالسفر بمرافقة الزوجان إلى تونس؛ استطاع مسيو دوفان إنهاء تلك الإجراءات اللازمة وفى مثل تلك الأحوال وواجه صعابا فى الفترة الأولى خشية أن يكون الوالدان قد باعا الطفلة إلى الأسرة الفرنسية؛ عند قيام بعض المسئولين بمديرية أمن الدقهلية بالتحرى استيقنوا بأن تلك الأسرة ترعى الفتاة منذ ما يقرب من الأربعة أعوام وأن نية البيع أو

التبنى غير واردة والدليل أن الفتاة مازالت تحمل اسم والدها عوف وتقوم بزيارتهم وهذا بشهادة الكثيرين.

إستخرج جواز سفر لها يُسمح فيه بمرافقة السيدين دوفان وجين إلى خارج البلاد، حصلت على تأشيرة من السفارة التونسية، خلال الشهر غادرت العائلة المنصورة بعد وداع حار مع العاملين لديهما وإعطائهم مكافأة سخية على حُسن عملهم طوال الفترة الطويلة التى قضوها معهم، ودعت العائلة البسيطة ابنتهم وهم يشاهدونها سعيدة بهذا السفر ولم تكن خائفة أو مضطربة فالفترة التى قضتها معهما زادت من قوة ومتانة جسور الحب بينهما برباط قوى ومتين وأصبحا أبا وأما حقيقيين.

***

فى مدينة تونس تمتعت سعاد بالحياة هناك؛ حيث كانت تسمع الناس يتحدثون العربية وتسمع الآذان بالمساجد وتشعر بالكثير من العادات والتقاليد المتبعة بمصر، بل كانت تشاهد حفلات السيدة أم كلثوم وبعض الفنانين المصريين الذين يقومون بزيارة تونس العاصمة.

نشأت صداقات بين سعاد وبعض الفتيات فى مثل عمرها بتونس وأيضا بين سعاد وبنات الجالية الفرنسية الكبيرة بتونس، كما قام كل من جين ودوفان برحلات سياحية لأماكن ترفيهية كثيرة

يغلب عليها الجمال والنظافة بمناطق متعددة بتونس ووصل الحال بسعاد أنها تمتعت بمياه البحر الأبيض وإرتدت لبس الإستحمام الخاص بالنساء وكانت تتعجب كيف أن صديقاتها بالقرية لا يمكنهن هذا وأقصى شيء يقمن به النزول لمياه الترعة والوقوف بالماء لفترة وهن مازلن يرتدن ملابسهن كاملة ثم تفاجأ الواحدة منهن بعد أسابيع بإصابتها بمرض البلهارسيا والكثير من الأمراض الأخرى التى تهاجم أبناء وبنات الفلاحين بالقرى المصرية لقلة الوعى الصحى والنظافة.

انتهت سعاد من الدراسة بالمرحلة الابتدائية وأصبحت تجيد اللغة الفرنسية مثل بنات الفرنسيين المتواجدين بتونس، بعد عدة أسابيع نقل مسيو دوفان إلى فرنسا للعمل بمدينة تولوز وهى موطنه وموطن زوجته، هناك عاشوا بمنزلهم الجميل؛ المنزل عبارة عن فيلا جميلة تحيط بها الخضرة من كل جانب كما حضر لزيارتهم ابنهم مكسيم وزوجته وطفلته وسعدوا بهم وأصبحوا عائلة كبيرة والتحقت سعاد بإحدى المدارس بالمدينة واصبحت مثل الفرنسيين كما واظبت على زيارة عائلتها سواء بمفردها او برفقة "ماما وبابا".

## سعاد بالجامعة

تعتبر مدينة تولوز رابع أكبر مدينة فرنسية وتتمتع باقتصاد ضخم وبها العديد من الشركات العالمية الشهيرة مثل شركة "ايرباص" لصناعة طائرات الركوب العملاقة المنافس القوى للطائرات الأمريكية من طراز بيونج، انتهت سعاد من الدراسة فى المرحلة الثانوية بتفوق وتستعد للالتحاق بجامعة تولوز بين سعادة كل أفراد الأسرة خاصة "ماما جين" التى شعرت أنها كانت بعيدة النظر منذ بداية إنضمام سعاد لها بمدينة المنصورة وشعورها بأن تلك الطفلة لها مستقبل باهر لما تتميز به من الفطنة والذكاء، كل إستنتاجاتها كانت بمحلها وقد أصبحت سعاد شابة يافعة تزداد جمالا وبهاءً يوما بعد يوم وتنظر إليها فى غدوها ورواحها وسعادتها لا توصف بأن تصبح هذه ابنتها رغم انها تعلم بأنها لم تنجبها لكن هناك فارق كبير بين الإنجاب والتخلي عن الطفل وبين عدم الإنجاب ورعاية أى طفل ووضعه فى مكان وطريق صالح ليصبح ذا فائدة للمجتمع ولنفسه.

قارنت جين بين سعاد وصديقاتها وإخوتها بقريتهم حينما كانت تصطحبها فى بعض زياراتها لعائلتها، شعرت وتأكدت بأن هناك فارقا كبيرا وهذا دليل على حُسن الرعاية والاهتمام وأيضا دليل على أن هؤلاء القوم أصحاب حضارة وعلم وكما تقول بعض الكتب

المتخصصة من علماء أفاضل بأن المصريين القدماء صدروا للعالم الحضارة والتقدم ولكن النسيان والإهمال على مدى العصور السابقة طوي تلك الصفحات البيضاء المشرقة من جبينهم وجبين البشرية ومجرد أن تزيل هذا الغبار وتوضح لهم الطريق وتمد يد المساعدة الفعالة يصبح هذا النتاج الرائع لبنى البشر، أنهم مثل الذهب الذي فقد ضياؤه وبهجته بسب الاتربه وعدم العناية والاهتمام، لكن مجرد أن تزيل كل تلك العوامل السيئة يعود براقا لامعا يخطف الإبصار والعقول ويصبح ذا فائدة كبرى.

مسيو دوفان هو الآخر بعد أن أنهي خدمته فى مجال البنوك وتقاعد لم يعد أمامه من نشاط وأمل للمستقبل سوى تلك الفتاة التى شاهدها طفلة صغيرة لا تعرف كلمة فرنسية واحدة ولا تعرف كيف تعود لعائلتها خاصة أثناء اختطافها وتذكر ذلك الحيوان الأليف بربارة التى الهمها الرب أن تذهب إلى الطفلة وتعود إليهم بمعلومات عن مكان اختطافها ولولا هذا لبقيت ضائعة مع باقي من كانت تعيش معهم. وتسائل بدهشة: أين زملاء سجنها الآن؟ أعتقد أنهم من ذوى الإجرام وأصبحوا عالة على المجتمع الذي يعيشون بداخله يصدرون له المآسي وسوء الخلق؛ لأنهم بعيدون عن الرب والكتب السماوية ومبادئ الأخلاق بالإضافة إلى العلم والرقى.

فى احدى الليالى جلست سعاد فى حجرتها تتأملها ورغم أنها

تعيش بها منذ أعوام طويلة بعد العودة من تونس إلا انها شعرت بأنها جديدة عليها فى تلك الليلة بالذات وقد يكون السبب أن "بابا دوفان " اشترى لها حجرة نوم جديدة منذ أسبوع لتناسب حجمها بعد انتهاءها من الدراسة الثانوية؛ تنبهت الى ما وصل اليه نموها فنهضت لتشاهد تضاريس جسدها الفاتن الممشوق وهى ترتدي بيجامة حرير ذات ألوان جميلة ووضعت يديها حول خصرها تشاهد تقسيمات هذا الجسد الذي ما فتئت زميلاتها بالمدرسة الثانوية يعلنّ عن إعجابهن به وبجمال وروعته والذى هو خليط ما بين الشرق فى لون عينيها السوداويين وشعرها الطويل الأسود اللون والمسترسل على ظهرها كأنه شعر خيل بديع كما أخذت من الغرب أى فرنسا الرقى العام فى السلوك ووسائل النظافة والعناية بجسدها وبفكرها وعقلها أيضا.

شعرت بالحزن لأنها فى كل مرة حينما تذهب إلى قريتها تشاهد صديقاتها فاطمة وفكيهه وست أبوها وهن ملتحفات برداء اسود وأرجلهن وأيديهن خشنة وسيئة المظهر هذا بالإضافة إلى انبعاج بطونهن من الإنجاب المبكر وعدم العناية بأنفسهن وتأكد لها هذا لأن أمها رغم جمالها وبياض بشرتها فقد تأثرت بأشعة الشمس والعمل فى الحقول والإنجاب المتتالى وعدم العناية.

تتسائل بدهشة:هل نحن نختلف عن هؤلاء الأجانب؟ أجابت

على تساؤلها: لا اعتقد هذا فانا منهن وهن منى وقد يكون للحياة التى أعيشها والبعيدة كل البعد عن العمل الشاق المضني سعيا وراء لقمة العيش التى يلهث كل من فى بلدتنا من أجلها، ألم أشاهد أبى يسير طوال اليوم خلف العربة الكارو والتى يجرها حماره لبيع نبات الخس، لقد كان يقاسى من الحر صيفا والبرد شتاء وبالأخص من تأثير المياه التى كانت تبلل جسده وفى آخر اليوم يعود حاملا معه رزقه ورزقنا، هل يستوي هذا مع "بابا دوفان" الذي كان يجلس فى مكتبه بالبنك بمدينة المنصورة وبكل المقاييس مكتب فخم ولديه من السعاة والفراشين الذين يقدمون له الخدمات؛ كما أنه يرتدى ملابسه الأنيقة النظيفة المكواة بعناية ومن أجود الأنواع، إذاً هناك فارق ضخم فى مستوى معيشتهم ومعيشتنا، لقد وافق أبى على أن يسلمني منذ أكثر من أحد عشر عاما الى "ماما" من أجل أن تتحدث معي وتلاعبني مثلى مثل بربارة، آه بربارة هذا الحيوان الرائع والتى كانت تحضر إلىّ بمقلب قمامة المنصورة لتشد من أزرى وانا لا اعلم أين انا وكيف أعود لمنزلي، لقد قدمت لي خدمات جليلة وكانت مكافأتها أن تموت بسببي، آه حبيبتي بربارة لن أنساك أبدا واعتبرك الصديق العزيز الوفي الذي رحل مبكراً.

مشطت شعرها أمام المرآة وتذكرت فريدة زوجة البواب، آه يا فريدة؛ لقد سعدت منذ عامين بزيارتك فى منزلك بإحدى شقق

المنصورة المتواضعة ورغم أن الشيب زحف إلى شعر رأسك الجميل لكن مازالتِ جميلة وبالأخص ابتسامتك الرائعة، لقد كبر ابناؤ ك والبعض منهم تزوج، آه على ابتسامة فريدة أما اعز ابتسامة رأيتها فى حياتي هى ابتسامة عم نوبي الذى قابلته أيضا ونحن برفقة "ماما جين وبابا دوفان"؛ لقد أصابه العجز ويجلس مع زوجته العجوز بداره باحدى القرى القريبة من المنصورة ومازالت ابتسامته عذبة صافية ولا انسي اننى مجرد أن شاهدته لم يتعرف عليّ، لقد كبرت بينما ضعف بصره ونسى ملامح هذا الوجه الصغير الذي كان يعرفه، مجرد أن شاهدته اندفعت نحوه احتضنه، هدهد على كتفي قائلاً: أهلا بست العرايس أهلا بيكِ، انتِ مين؟ وحينما علم باننى سعاد حاول النهوض ليرحب بى لكن قدميه لم تساعداه فطلبت منه "ماما جين" أن يظل جالسا ثم نظر إلىّ ثانية واشار إلىّ قائلا:

ـ تعالى هنا اجعدى ريحى، الله عليكِ يا بنت عوف، والله سنيورة أمسك بيدى يقبلها بكل عطف بينما كنت أحاول أن اجذبها من يده الخشنة الضعيفة المرتعشة فيردد: أنتِ تربيتى على ايدى وينظر إلى "ماما جين وبابا دوفان" مستفسراً؛ مش كده برضه يا سعادة البيه فيؤكدان على صدق حديثه.

عاودتها الأفكار والذكريات أثناء زيارة قريتها وشاهدت شقيقاتها

الثلاث وهن محملات بأعباء الحياة ولهن من الأطفال العدد الكبير تتسائل:

. لماذا هذا الإنجاب الكثير؟ هل نحن فى مسابقة ؟ ألا يكفى طفلان لكل عائلة؟ ابتسمت وتذكرت الأسطى عبده النجار صديق والدها الذي ظلت امرأته تلد حتى وصل عدد أبنائه الى أحد عشر طفلا وطفلة والناس يتسألون:

. ليه كده يا أسطى عبده؟ كفاية خلفه؛ ابعد عن مرتك شويه، الوليه خلاص معدش فيها حيل لخدمتكم؟ يضحك من حديثهم مبتسما ويضع القلم الرصاص فى أذنه ويمسك بالشاكوش فى يده ليؤكد حديثه:

. الواد عوضين ابن عمى عبد العال مرته خلفت توأم، يعنى هوه بيجيب بالجوز وانا باجيب بالفرد، حأفضل اخلف لحد ما مرتى فتحية ما تجيبلى جوز زى الواد عوضين والا هوه أحسن منى؟ وإلا أحسن منى؟ ماهى هاصت، الواد الرفيع اللى عامل زى عود الملوخية أحسن منى، أبدا حافضل على كده لحد ما أجيب جوز، ضحك أصدقاؤه لحديثه وعلى هذا التنافس فى الإنجاب.

جلست سعاد على سريرها وشاهدت بعض الصور التى التقطتها فى البلدة وهالها عدم النظافة والعناية سواء بأجساد الناس أو بالحواري والمنازل ومازالت تسأل نفسها:

. الميه موجوده والصابون والمقشات وكل شيء لزوم النظافة متوفر ليه بنعمل كده؟ إحنا دونا عن الناس مش بنحب النضافه؟ مش معقول!! تعود بذاكرتها إلى القاهرة والإسكندرية وتشاهد الناس وهم أقرب إلى هؤلاء الذي تعيش بينهم من الرقة والعذوبة فى الحديث ولنظافتهم الشخصية بل أنها تتذكر أثناء زيارتها الأخيرة لمصر تقابلت مع بعض الفتيات المصريات فى الإسكندرية على بلاج المعمورة وشاهدت حسنهن وجمالهن الذي لا يقل عمن حولها فى نيس وتولوز ومرسيليا حتى باريس العاصمة بل أنها تجزم بأنهن أجمل من الفتيات هنا لما حباهن الله من خفة الروح والجاذبية وانا فتاة مثلهن اقول ذلك.

تركت أفكارها وذكرياتها ونهضت وفتحت جهاز التلفزيون الذي أمامها وفوجئت بشيئ يسرها. برنامج وثائقى عن مصر وحضارتها الفرعونية ومدى تقدم المصريين القدماء، مضى المذيع فى ذكر تفاصيل مراحل الرقى والتقدم وأنواعه التى شملت الحضارة المصرية القديمة، ثم انتقل بالصورة لعمل مقارنة مع الأحفاد حاليا وأتى بمشاهد لأطفال حفاة فى الشوارع وآخرين ينامون ليلا بجوار الكورنيش أو تحت الكبارى والذين لا تعلم عائلاتهم شيئا عنهم، إما لأنهم لقطاء أو أنهم فقدوا من ذويهم، عادت بها الذاكرة سريعا إلى مقلب القمامة وتذكرت كل شيء وهى تشم رائحة المقلب والذباب

المتراكم فوق تلال القمامة التى عملت بها طوال ستة أشهر، وما تشاهدهم الآن من أمثال الذين كنت أعيش بينهم، هؤلاء المساكين تذكرت القصص والحكايات التى كانت تروى أمامها من ضرب وإهانة وطرد من المنزل إلى الشارع.

تتمتم: بعد أن أنهى دراستي لابد أن أعود إلى قريتي، لا بل إلى بعض القرى لأساعدهم فى تجنب تلك الأمراض الإجتماعية كما يجب على أن أقوم بزيارة اصدقائى فى مقلب القمامة وارعى حالتهم وأساعد من استطيع مساعدته.

أقبلت ماما جين بينما سعاد ما زالت سائرة فى أحلامها شاهدتها ولمحت السعادة البادية على الوجه والإنفعال سواء بذكريات الوطن أو بما تشعر به من جمال وأنوثة اشبعت غريزتها كل إنسان يتمنى الأفضل، تحدثها:

. سؤاد .. سايفك "شايفك" اليوم سئيدة ، ما السبب فى سئاده؟

. "ماما" أنا كل يوم سعيدة؛ وقفت سعاد تنظر إلى المرآة تعيد معاينة مفاتنها؛ قبلتها جين واحتضنتها قائلة:

. سؤاد أنت هلو كتير، لازم فيه قصة هب؟!

ثم عادت جين وابتسمت لها راغبة بأن تكمل لها سعاد ما تريده منها .. أجابت:

ـ أبدا "ماما". لا توجد قصة حب لكنها السعادة، أنا سعيدة بكِ وبـ

"بابا" وباخى مكسيم وزوجته لورا وابنته صوفيا، إننا أسرة سعيدة .. لكن فى بعض الأحيان اشعر بالضيق لما ألاحظه من حال بلدتنا وبعض الناس الفقراء المحتاجين والأمراض تفترسهم، هذا كل ما يقلقنى "ماما"

ربتت على خدها برقة الأم واعادت تقبيلها قائلة:

. سؤاد .. أنتِ ابنه كويس كتير ومهظوظ لكن أنت سؤاد مس سفت ناس فكرا فى فرنسا، أنت تعرف سؤاد أن اهسن مدينة بأوربا هى باريس ؟

. هذا معلوم على مستوى العالم وأن بعض زميلاتى من دول أوربية أخرى تؤيدن ذلك.

ـ سؤاد، بعد اتنين يوم اروه معاك باريس يوم اهد وتسوف فُكرا.. اندهشت سعاد.

. فقراء؟

. ايوه سؤاد فكرا، ومساكين زى بلد بتاع البابا أوُوف !!!

***

فى عطلة نهاية الأسبوع استقلت العائلة السيارة متجهة إلى العاصمة باريس وشكل هذا سعادة كبيرة لهم جميعا خاصة الشابة الجميلة سعاد التى شعرت بالشباب والحيوية لتلك العاصمة الجميلة فكلاهما يجمعهما الجمال والرقة والتطلع إلى المستقبل لأن باريس

فى حالة من الشباب الدائم خاصة وسط المدينة وعلى ضفاف نهر السين وما حوله من متنزهات وحدائق وكورنيش رائع على ضفتي النهر والمراكب السياحية تمخر عبابه وترنو إلى المشاهدين بكل معانى الجمال سواء فى صورتها الجميلة الصنع والزخارف أو فيما تحمله من بشر يبدو عليهم الصحة والجمال والسعادة ويمرحون ويرقصون فوق أسطحها دون ضوضاء أو إزعاج بعيدا عن هموم العمل؛ حصلت الأسرة على نصيب فى تلك النزهة وتناولوا طعام غذائهم على سطح احداها يشاهدون المرافقين والمرافقات من حولهم أثناء رقصهم ولهوهم ومرحهم باديا عليهم السعادة والمتعة.

قادت جين السيارة نظرا لحالة ضعف الإبصار التى أصيب بها مسيو دوفان؛ اتجهوا جميعا إلى الحى اللاتينى وهو من الأحياء القديمة والذى يجتمع به بعض الصعاليك الذين ينظرون للحياة بنظرة أخرى من الكسل وعدم المبالاة سواء سلوكا منهم أو لعدم توفر المقومات التى تساعدهم على إيجاد فرص عمل جيدة؛ غادروا السيارة بعد أن أوقفتها جين بالمكان المخصص لهذا وإلا سوف تقوم قوات الشرطة المتواجدة فى هذا المكان بسحبها فهم على أهبة الاستعداد لهذا، شاهدت سعاد بعض الرجال والنسوة المتسكعين بالحوارى والازقة يدخنون السجائر سواء جلوسا على المقاهى المتواضعة أو وقوفا على نواصى الشوارع انتظارا لتقبل الهبات

والمساعدات من الآخرين؛ هم معروفون بهيئتهم هذه بأنهم من المحتاجين للعون والمساعدة، استمروا فى سيرهم يشاهدون الأبنية القديمة وكل شيء شاهدته كان يغلفه النظافة والعناية يساعدهم على هذا الطقس الأقل حرارة عن مصر كما تساعد الأمطار كثيرة الهطول من وقت لأخر على غسل الأبنية والشوارع بالإضافة إلى أن الرياح لا تحمل أتربة نظرا لانتشار الخضرة فى كل مكان.

أسفل أحد كبارى نهر السين شاهدت سعاد بعض العاطلين يرقدون أرضا يدخنون وحالتهم العامة سيئة للغاية وكان هذا باديا على مظهرهم سواء من ملابسهم القديمة أو نظافتهم الشخصية مازالت تشاهد وتنظر بدهشة لهذا البلد الجميل فرنسا الذى يؤوى بعض هؤلاء وهى التى عاشت السنين والأيام الطوال سواء فى تولوز أو اثناء زياراتها القليلة للعاصمة وقضاء بعض الأوقات برفقة "ماما جين وبابا دوفان" ولم تشاهد تلك المناظر ولم تكن تعلم بأن هذه المدينة الساحرة التى يطلقون عليها فى أوربا عاصمة النور والفن والجمال تحوى مثل هؤلاء المشردين.

لاحظت جين دهشة الفتاة وعلامات الاستفهام بادية على ملامحها ولهذا قررت أن تمدها بالمساعدة دون أن توجه لها أى سؤال.

ـ سؤاد .. أتندهشين مما تشاهدينه؟ حركت سعاد رأسها بما يعنى

انها غير مصدقة ما تراه. اجابت جين .. سؤاد فى كل دول العالم لابد من تواجد مثل هؤلاء الناس لأنه قانون البشر، فنجد المتعلمين والمثقفين الذى يدفعون بنهضة البلد وآخرين كسالى والله لم يعدهم لمثل هذا الرقى فقدراتهم محدودة .. سواء لقلة ذكائهم أو لكسلهم وإهمالهم وانتشار المخدرات والجنس؛ نظرت سعاد إليها وعادت بذاكرتها إلى الوراء أكثر من اثني عشر عاما بمقلب القمامة بالمنصورة، جنس ومخدرات وقذارة وإهمال، كأنهم فى مصر اتفقوا مع المتواجدين هنا، نفس المواصفات الشخصية لكن مع اختلاف الموقع الجغرافى والملابس واللغة عدا ذلك فالتقارب والتشابه واضح لدرجة غريبة، نظرت سعاد لأمها:

. أشاهد كل شيء لكنك تقولين الجنس، انا اعلم منذ حضورى إلى تولوز بأن الجنس هنا يحظى بحرية مطلقة، أى أن العلاقة بين رجل وامرأة فى إطار غير قانونى أو رسمى متوفر دون قيود مثل بلادنا إذاً لماذا تضيفين هذه الكلمة وتعتبرينها من تصرفاتهم المخالفة عن الآخرين.

ضحكت جين وشاركها مسيو دوفان على سؤال صغيرتهم ساروا قليلا حتى وصلوا إلى السور الحديدى المطل على نهر السين واستندوا عليه وبدأت جين بتوضيح ما تقصده لها:

. صغيرتى سؤاد، إن العلاقة بين الرجل والمرأة هنا مقننة مثل وطنك

تماما ولابد من الزواج؛ مثلا انا وبابا تزوجنا ومكسيم ولورا تزوجا نفس الاجراءات، نتوجه للكنيسة ويقوم القس بكتابة وثيقة زواج؛ هذا هو الشيئ الطبيعى للأسوياء هنا وهم الغالبية، أما غير الأسوياء فتقوم علاقتهم على غير ذلك، مثل صداقة فى عمل أو الدراسة بين اثنين، رجل وامرأة، ثم تتطور إلى علاقة جسدية لفترة ما ثم يغلفها البرود والتجمد وسرعان ما تنتهى وكل طرف يبحث عن صديق جديد، ورغم أن علاقتهم مخالفة لتعاليم الكنيسة إلا أنها تكون مستترة وداخل المنازل والشقق ولا يجب الجهر بها علنا لأنه نوع من الحياء والخجل لديهما لأنهما مثقفان ومتعلمان ويتقلدان وظائف محترمة ولا يجب عليهما أن يصبحا مثل الآخرين؛ لكن من هم الآخرين؟ هؤلاء الذين شاهدناهم منذ قليل ينامون فى أنفاق المترو أو أسفل الكبارى أو بجوار الحوائط فى أطراف المدينة، هؤلاء لهم علاقـــتهم الجنســـية الواضحة فى تلك الأماكن لا يستطيعون التستر إلا قليلا وهم لا يأبهون بالآخرين، هم يريدون طعاما ومخدرات وجنس ويقضون حياة الشباب هكذا وتجرى بهم الأيام ليجدوا أنفسهم وقد سرقهم الزمن وأصبحوا عاجزين وأصابتهم الأمراض التى تنتقل إليهم عن طريق المخدرات والجنس المتبادل بين أكثر من شخص ثم النوم فى العراء فيجتمع عليهم هذا الثالوث البغيض فيهلكون ويكون مأواهم بيوت المسنين حتى يتوفاهم الله

ويغادروا الحياة ولم يضيفوا شيئا بل كانوا عبئا على الآخرين.

سمعت سعاد وشاهدت وهى فى دهشة من تلك المعلومات الجديدة على اذنها ووعيها، سألت أمها سؤالا يسمح به أسلوب الحياة فى هذا البلد المتطور، ماما:

ـ معنى هذا أن أحسن علاقة بين الرجل والمرأة فى تلك الأنواع الثلاث التى ذكرتها هى الأولى وهى الرسمية والتى تتم بالكنيسة على يد أحد القساوسة؟

ـ هذا صحيح سؤاد، تلك العلاقة الفاضلة تتمشى مع روح الدين المسيحى بل والاسلامى أيضا، كل المسلمين الذين عرفتهم فى مصر متزوجون رسميا على يد الشيخ .. سواء فقراء أو أغنياء.

قادت جين السيارة إلى حى "سين سان ديفينى" ومنطقة "كليشى سوبواه" وهو حى الفقراء من المهاجرين الأفارقة والجزائريين والمغاربة ولاحظوا مدى القذارة والإهمال وعدم عناية أجهزة الدولة الفرنسية أو عمدة باريس بهم، القذارة هى السائدة والبطالة وتدخين المخدرات والمنازل البالية وانتشار المخدرات والسرقات والجنس أنها مثل مقلب قمامة المنصورة، انتقلت جين إلى منطقة أخرى وهى "مونت فريمى" وهى شبيه بالمنطقة الأخرى ونفس الإهمال وانتشار الفساد واللا مبالاة كما أن اقرب وسيلة مواصلات لتلك المناطق السكنية تبعد مسافة ثلاثة كيلومترات على الأقل وهى

عبارة عن قطار وعلى المسافر أو الذى يحمل أشياء أن يسير تلك المسافة حتى يصل منزله أو إلى القطار ومنهم كبار السن والأطفال والعجائز، نظرت سعاد إلى "ماما" ولسان حالها يقول ما أشاهده الآن مثل الذى كنت أعايشه لفترة ستة أشهر بعد اختطافي.

اليوم التالى خلدت فيه سعاد إلى حجرتها ولاحقتها الأفكار التى تزاحمت على عقلها، إذاً العلاقة الفاضلة كما قالت ماما هى الزواج الرسمى فى الكنيسة ولهذا يجب علىّ أن أتزوج فى الكنيسة مثل الأخريات، أسعدها هذا وضحكت قائلة: أن هذا رائع للغاية، عندما يحبنى شخص ما وأحبه سوف نذهب إلى الكنيسة ونتزوج مثل ماما وبابا، لكنى حتى الآن لم أعجب بأحد ولم أشاهد شابا أعجب بى رغم ثقتى بأني جميلة ولى جاذبية؛ نهضت ووقفت أمام المرآة وعاينت تضاريس جسدها وشملتها حالة من السعادة وإسترجعت ما قيل لها من فتيات المدرسة أو بنات الجيران للفيلا التى تقيم بها.

عصر اليوم التالى خرجت سعاد برفقة ماما يتنزهان قريبا من الفيلا التى يقيمون بها، كان الطقس جميل ورائع فأفضت سعاد لأمها بما يعتمل فى تفكيرها.

ـ ماما حتى الآن لم يُقبل علىّ أحد من الشباب وأنا الأخرى لم انجذب إلى أحد من الشباب الذى شاهدتهم وقابلتهم سواء أثناء

التنزه أو خلال العلاقات الأسرية التى تجمعنا بهم، ألا تدرين ما هو السبب فى ذلك؟ ابتسمت جين وهى تستمع لتلك الكلمات الرقيقة التى تخرج منها وغلفتها البراءة وذكرتها بالماضي البعيد لها وهى شابة غضة الايهاب أثناء دراستها بالجامعة.

- حبيبتى سؤاد .. مازال أمامك الوقت للزواج وخاصة أنكِ مازالتِ تدرسين وهذا يختلف عن الفتيات اللآئى انتهين من دراستهن أو خلاف ما يحدث فى قريتكم حيث الزواج المبكر هو سمة أهل الريف فى كل أرجاء العالم حتى فى فرنسا لأن الفتيات يخرجن للعمل مبكرا ويكتفين بالدراسة المتوسطة فلا لزوم للجامعة ولهذا لا تشاهدى فى الجامعة فتيات مقبلات على الزواج لكن قبل انتهاء دراستك الجامعية أو بعد هذا بقليل سوف يندفع المعجبون إليك يطلبون ودك للاقتران بك وهنا يمكنك الاختيار ورغم أنى أرغب بأن نؤجل هذا إلى ما بعد التخرج من الجامعة لأننا عقدنا العزم انا وبابا على أن تواصلى التعليم وتحصلى على درجة الماجستير لأنها سوف تساعدك على تقلد وظيفة ارفع من وظيفة الشهادة الجامعية الأولى.

تلك الكلمات المشجعة أسعدت سعاد وكادت أن تصفق من السعادة، وعلقت على سؤالها لأمها بخصوص الزواج بأنه سؤال عفوى ولا ينم عن رغبة مطلقة فى هذا الاتجاه، فهى تريد المعرفة

والعلم بالشيء، احتضنتها جين وقبلتها أثناء سيرهما.

ـ لا غبار عليكِ فى هذا، لكِ أن تسألى وتعلمى كل شيء يحيط بكِ، فالمعرفة بالشيئ أفضل من الجهل به، هذه المعرفة تساعدك مستقبلا فى اتخاذ القرارات والخطوات السليمة فى حياتك العملية والعائلية.

اعادت عليها سعاد سؤالا آخر، ماما .. فى حالة انتهائى من التعليم وتقدم لى شاب وافق هوائى ورغبتى واشعر أنه المناسب لى سوف انهج نهجك انتِ وبابا ونذهب للكنيسة ونعقد عقد زواجنا حتى نكون مثلكما.

شدت على يدها سعيدة بهذا مؤيدة تلك الرغبة، عادت ثانية وقالت لكننا فى مصر لا نذهب للزواج فى الكنيسة بل يحضر أحد الشيوخ ويزوج الشباب والفتيات فهل سأكون مثلهن فى مصر أو فى فرنسا.

توقفت جين عن السير، مرددة: آسفة حبيبتى الصغيرة، سوف تتزوجين كما يتزوج الناس فى مصر، فأنتِ مسلمة ويجب إتباع نهج دينك وقومك ونحن لم نطلب منك فى أى يوم من الأيام أن ترافقينا إلى الكنيسة فى يوم الآحاد أو فى أيام الأعياد لأن هذا مخالف لدينكم، فانتِ مسلمة كما قلت ولكن الشيء السلبى الذى قمت به هو إننا لم نوجهك لمسجد أو مركز اسلامى سواء فى

تونس أو فى فرنسا ولهذا سوف أحدث بابا عن هذا الأمر حتى تعلمى كل شيء عن دينك، أنتِ مازلتِ أمانة ووديعة لدينا ويجب علينا أن نكون أمناء وأوفياء على تلك الوديعة حتى لا نغضب الرب، هذه تعاليم المسيحية السمحة وأيضا هذا منصوص عليه فى دينكم وكنت اعلم من بعض صديقاتى فى مصر بأن كتابكم المقدس يحض على هذا وأن يتمسك كل شخص بدينه، هذا اتفاق جوهرى فى الديانتين أما من يريد أن يبدل ويغير دينه فهو حر وانتِ تعلمين أن بلدنا تعشق الحرية التى لا تضر ومنها حرية الديانة والعقيدة، فانتِ ما زلتِ صغيرة لكن بعد التحاقك بالجامعة يجب أن تعلمى وتدرسى علوم دينك، فلا يجب علينا الاهتمام بك فى كل شيء ونترك هذا الأمر ونهمله، فالعقيدة ركن هام من أركان حياة الإنسان السوى فى أن يعلم عن الله كل شيء وكتابه المقدس الذى يأمره بأشياء وينهاه عن أشياء أخرى، أنه قانون الرب فى الأرض حتى يحيا الناس دون مشاكل ومن يخالف هذه التعليمات يعتبر آثم ولا ريب وأنتِ لا تعلمين تلك القوانين ولهذا فأول شيء سوف انتبه له هذا الركن الهام الاساسى لحياتك، لقد احتفظت باسمك كما هو وظل لقبك لوالدك عوف ولم نغيره أو نبدله واحتفظت أيضا باسمك وجنسيتك بالإضافة إلى الجنسية الفرنسية التى اكتسبتها بعد أن قدم دوفان أوراقك بأنه المسئول عنك وعن

رعايتك، أعيد اعتذارى حبيبتى الصغيرة سؤاد؛ إستمرت الإثنتان فى طريقهما عادتين إلى الفيلا بعد أن فتحت سعاد قلبها لأمها والأخرى فتحت نافذة هامة فى حياتها وهى الدين والعقيدة.

بعد تناول طعام العشاء جلس كلٌ من الزوجين يتحدثان فيما دار بين جين وبين سعاد من حوار واعترفا بأنهما اخطئا دون عمد فى عدم دفعها لمعرفة أمور دين الإسلام كما وافق دوفان على رأى جين بالبحث عن شخص مسلم يوضح لابنته أمور دينها مقدما اعتذاره لزوجته بأن أمور الحياة سرقتهما من أن يصبحا أمناء على تلك الوديعة ولكن سنحاول إصلاح ما سقط سهوا.

على مدار أسبوع كامل ودوفان يحاول العثور على أحد المسلمين دون جدوى فهداه تفكيره إلى السؤال فى مركز الشرطة بالمدينة فلديهم سجل للمهاجرين والمنتسبين للجنسية الفرنسية، لم يستطع أحد مساعدته نظرا لأن الديانة لا تسجل للأشخاص المهاجرين أو المقيمين .. بأحد المحلات المتطرفة فى المدينة شاهد أحد الرجال الملتحين وكانت معلوماته أثناء عمله فى كل من مصر وتونس بأن هؤلاء من رجال الدين المسلمين، تناقش معه فى الأمر لكن الرجل اعتذر بأنه لا يعرف شيئا عن الإسلام لأنه من أبناء الهند والذى يطلق عليهم السيخ.

أخيرا توصل مسيو دوفان إلى المركز الاسلامى الذى يقع فى

العاصمة الفرنسية باريس، شاهد الرجال وهم يؤدون عبادتهم وتقابل مع بعضهم وقابل رئيس المركز الذى شرح له المشكلة التى وقع بها وهون عليه الرجل الأمر واخبره بأنه يمكن للفتاة الحضور للمركز فى أيام الأحد للحصول على الدروس اللازمة لهذا الأمر ولكن دوفان اخبره أنهم يقطنون فى تولوز وابنته تدرس بجامعتها وهذا صعب عليها، قام رئيس المركز بتزويده بكتب إسلامية مُيسرة للمبتدئين فى دخول الديانة طالبا منه أن تقوم ابنته بدراستها وفهمها وعليه أن يعاوده على فترات وفى كل مرة سيزوده بكتب أكثر تقدما فى مجال الدين حتى تتدرج إبنته فى علوم الدين الاسلامى خطوة خطوة كما زوده بكتاب المسلمين المقدس"القرآن الكريم" طالبا من ابنته محاولة حفظ بعض أجزائه والتى ترجمت المعانى بها من العربية إلى الفرنسية وقام بتلك الترجمة بعض الفقهاء من الجزائر التى حصلت على استقلالها من فرنسا منذ عدة أعوام خلت.

قدم مسيو دوفان شكره الكثير لمدى تعاونه معه واتفقا معا بأنه إذا قام بزيارة العاصمة باريس فعليه الحضور للمركز لتزويده بما هو جديد لديهم، فدائما ما تصل كل الكتب المترجمة من جامعة الأزهر بمصر وهذه هى الجامعة الإسلامية الأولى فى العالم وعمرها يصل إلى الألف عام كما طلب منه إذا حضرت ابنته برفقته فلتحضر كى نوجه لها بعض الأسئلة لمعرفة مدى التقدم

الذى أحرزته حتى الآن وتزويدها ببعض النصائح التى يجب إتباعها لتسلك الطريق الصحيح فى تعلم أمور دينها؛ غادر دوفان المركز الاسلامى وهو فى اشد حالات السعادة.

عاد دوفان سريعا مسرورا إلى بلدته واجتمع فى المساء بزوجته وابنته واخبرهما بكل ما قيل من رجل الدين المسلم وسلم سعادا كل الكتب التى احضرها معه موضحا لها بأن هذا الكتاب للحفظ ويسمى "قرآن كريم". اسعد هذا الحديث كلا من الأم وابنتها وتسلمت الفتاة الكتب وصعدت بها إلى حجرتها لتفتح طلاسم تلك الكتب.

كانت أمامها فرصة طيبة فلم يحن موعد الدراسة بالفصل الدراسى الثانى بالجامعة ويمكنها أن تنهل من تلك الكتب، شعرت بسعادة غامرة أثناء قرأة القرآن الكريم وتذكرت انها سمعت مثل تلك الكلمات خاصة أثناء العزاء فى وفاة أحد من أبناء البلدة أو أثناء دفن الموتى ودهشت متسائلة: ماهى العلاقة بين القرآن والموتى؟ لماذا لم تسمع تلك الكلمات التى استعادت ذاكرتها الصغيرة بعض قطوف منها فى الأفراح والزواج؟ لم تعثر على اجابة واضحه مقنعه لسؤالها، عادت بذاكرتها لصديقاتها فى البلدة فاطمة وفكيهه وست أبوها متسائلة: أعتقد بأنهن يحفظن الكثير من محتويات هذا الكتاب القرآن الكريم؟ فمازلن يقمن بين عائلاتهن

المواظبات على الصلاة، عاودتها الذاكرة مرة ثانية، أعلم من مشاهداتى أثناء طفولتى بأن الصلاة للرجال والعجائز من النساء قررت بأنه من الواجب عليها التعلم والاستفادة من تلك الكتب لتعلم أمور دينها والتى سوف تفيدها بعد عودتها لقريتها أو أثناء الزيارة وسوف تقارن ما تعلمته بما لدى صديقاتها من معلومات عن الدين.

مضى على التحاق سعاد بالجامعة عدة أعوام وخلال تلك الفترة سارت سيرا حسنا فى دراستها ولم تنس الأيام الأولى لها بمقلب القمامة، اقترب موعد انتهاء الدراسة الجامعية وازدادت جمالا ونموا سواء جسديا أو فكريا وعقليا وشعر والداها بانهما حصدا من وراء ما أنفقوه من رعاية معنوية أو مادية فى صورة متعة النجاح والتوفيق وأن سعادا خلال تلك السنوات التى قاربت الستة عشر عاما تعيش معهما وتحادثهما بأحب الألقاب إلى قلوبهما "ماما و بابا". لقد أدخلت الدفء والبهجة إلى القلوب الهرمة وهما ينظران إليها فرحين سعداء بما قدماه لها وللبشرية كإنسانة ناجحة ستقدم إلى وطنها الكثير سواء وطنها الأصلى مصر أو المعنوى فرنسا.

شعرت سعاد بمدى ما حققته ولم يكن فى إمكانها ولا فى إمكان أسرتها تحقيق هذا لولا وجود أسرتها الثانية الفرنسية فى حياتها ولهذا شعرت بمدى أهمية أن يتوافر العنصر الصالح من متعلمين قادرين ماديا ومعنويا ولديهم التفرغ للإقدام على العمل التطوعى

للأخذ بيد المظلومين والمغتصبة حقوقهم فهذا عنصر هام فى تطور الشعوب خاصة الشعوب النامية الفقيرة التى تحتاج للنمو بمعدلات اكبر كى تستطيع تغطية فجوة التخلف بالمقارنة بالشعوب المتقدمة الراقية.

وضعت هذا نصب أعينها خاصة أنها شعرت بالإثنين معا التخلف بقريتها بمصر والتقدم التى تحيا به بمدينة تولوز الفرنسية تسائلت: من يكون أكفأ منى بالشعور بحالة المضطهدين والمخطوفين أو المطرودين من ديارهم والذين لفظتهم عائلاتهم بسبب الأمراض الاجتماعية المنتشرة فى المجتمعات المتخلفة أو التى ينقصها الوعى والثقافة والغطاء الدينى والمادى.

قررت سعاد بعد تخرجها وتقدمها لنيل شهادة الماجستير أن يكون موضوع رسالتها فى ذات الحدث والتطرق إلى هذا الظلم البين وإلى الأسباب والمشاكل التى أدت إلى ظهور ما يسمى بأطفال الشوارع وماهى طرق العلاج المناسبة وما هى النتائج المترتبة على إهمال هذا المرض الإجتماعى سواء للمجتمع أو الأفراد أصحاب تلك المشاكل.

تقدمت سعاد إلى جامعتها للالتحاق بالدراسات العليا فى الموضوع السابق ذكره وكان عنوانه "أثر التفكك الأسرى على مستقبل الفرد والمجتمع" تحت شعار مشكلة الأبناء المشردين

بالشوارع، قبلت الجامعة موضوع الرسالة للدراسة وحصلت سعاد على منحة للقيام ببحثها وكان موقع البحث هو مصر؛ غادرت سعاد فرنسا متجهة إلى القاهرة تاركة "ماما وبابا" على وعد باللحاق بها بعد شهر من مغادرتها حيث كانت زوجة ابنهم مكسيم تنتظر مولودها الثانى فقررا التوجه إلى المدينة التى يقيم بها مكسيم وزوجته وقضاء هذا الشهر لرعاية الزوجة وأطفالها رغم أنهما لا يستطيعان أن تفارقهم سعاد لفترات طويلة وتحمل البُعدها عنها.

***

وصلت سعاد إلى بلدتها وتقابلت مع أسرتها واسعد هذا والديها عوف وسنية كما حضرت أخواتها المتزوجات مع أبنائهن وحضر أيضا شقيقها الأكبر مع زوجته وباقى أسرته وعلمت سعاد من أحاديثهم المتتالية والمندفعة بأن أكبر بنات شقيقها وتدعى "رتيبة" تزوجت ولم يصل عمرها السادسة عشرة بل وحامل ومضى على حملها ثلاثة أشهر وأصبحت تسير أمام عمتها غير قادرة على مجابهة ظروف الحمل فى تلك السن المبكرة بالإضافة إلى ضعف صحتها الناتج عن سوء التغذية والزواج المتسرع.

أما عن الأب عوف فكان يقاسى من ألام بقدميه والتى هى نتاج تأثير مرض الروماتيزم وكبر السن وإستبدل عمله السابق ببيع نبات الخس بالمنصورة بعمل جديد ومن أجل هذا افتتح دكانا

متواضعا فى منزل احد أصدقائه بان قام بفتح احدى حجرات المنزل المطلة على الشارع لتصبح دكانا يبيع فيه الخضروات والفاكهة لأبناء الطبقة المتعلمة أو الموظفين من أبناء البلدة كى يستطيع أن يغطى نفقات أسرته رغم أنه لم يتبق أحد من بناته لديه فالجميع تزوجن وأصبح من المعتاد أن تحضر بناته إلى أمهن يطالبن بالعون المادى من لوازم المنزل من أرز وسكر وزيت وسمن لمواجهة الطلبات المتزايدة لأسرهن التى تزداد عددا وفقرا لما يمثله كثرة الإنجاب من نفقات وبالتالى كثرة الأعباء المالية.

كل تلك العوامل لم تكن جديدة على سعاد فهى ابنة تلك الأسرة ومن تلك القرية وتأتى للزيارة كل عامين أو ثلاثة ودون أن تدرى كانتُ تعقد المقارنة فى مخيلتها بين أبناء بلدتها وسلوكهم فى الزواج والإنجاب وبين المجتمع الفرنسى ورغم أنها أثناء كل زيارة كانت توضح لشقيقاتها مضار كثرة الأبناء إلا أنهن لم يأخذن كلامها مأخذ الجد خاصة أزواجهن الذين اعترضوا على كلام سعاد بأنها خوجاية وبتكفر بنعمة ربنا اللى خلقنا علشان نعمر الأرض بالنسل وأن الرسول قال فى حديثه: تناكحوا تناسلوا فأنى مباه بكم الأمم يوم القيامة .. ثم يشير الزوج إلى زوجته مردداً: ده كفر بنعمة ربنا!

شاهدت سعاد فى البلدة سوء حالة كثير من الأطفال رغم

التقدم الاقتصادي الذى حدث على مستوى الوطن وبالأخص بين الفلاحين من ارتفاع أسعار المحاصيل الزراعية لكن كل تلك القفزات فى الاقتصاد تلاشت وضاعت أمام ظاهرة الترف والبذخ فى الإنفاق المظهرى مابين تلفزيون ملون بعدة أنظمة وجهاز فيديو ثم تطور إلى أطباق الإرسال التفزيونى وكلها مصاريف إضافية لا يستطيع العامل أو الموظف البسيط تحملها ولكن المحاكاة والتقليد الأعمى طغى على كل شيء ولاحظت أن أزواج شقيقاتها لا يقدمون لها الاحترام الواجب كشقيقة زوجاتهم نظرا لأنها الأصغر عمرا؛ فشقيقاتها يطلقون اسمها مجردا من أى لقب والزوج هو الآخر يرفع الكلفة بينها وبينه وينايا بنفس الاسم ثم تطور الأمر إذ تسمع أحدهم ينادي عليها باسم "بت يا سعاد" مثل ما ينادى زوجته.

غمرها الضيق من كل تلك التصرفات التى تنافى الذوق العام وشاهدت القرية والبشر مازالوا يعيشون فى حالة من عدم النظافة التى غادرتها منذ ما يقرب من عشرين عاما، ما زالت الأغنام والماعز والدواجن تتحرك فى كل مكان تاركة فضلاتها والذباب يملأ المكان نهارا أما ليلا فعذاب الناموس والبراغيث.

لم تستطع البقاء أكثر من ثلاثة أيام لما لاقته من ألام خلال نومها وإستخدام دورة المياه والاستحمام رغم توفر كل شيء عصرى من الكهرباء والمياه النقية بمواسير فى بيوت الفلاحين لكن توفر

الإمكانيات التى تساعد على النظافة شيء والشعور بالنظافة شيء آخر؛ كما لم يسعدها ما رأته وسمعت عنه سواء من شقيقاتها المتزوجات أو صديقاتها فاطمة وفكيهه وست أبوها والتى شاهدت كل واحدة منهن تسير وخلفها حبل من الأطفال وحالتهن الصحية مثل الأخريات من إهمال وقذارة ومن الحالة المادية المتردية.

غادرت قريتها بين استهجان الأهل وتدخل أزواج شقيقاتها المزارعين فى شئونها الشخصية، استعادت ذاكرتها بعض ما سمعته وفكرت فيه من أحاديث هؤلاء الرجال ومازال طنين كلماتهم يطن فى أذنيها:

ـ أنتِ حُرمه وخللى عندك شوية خشا "خجل" من عمايلك وامشى على سلو البلد، كل هذا قيل مباشرة بحديث حاد فى الألفاظ التى يستخدمها بعض الفلاحين لإثبات براعتهم فى التوبيخ والتقريع للآخرين ولم ينتبه أى منهم أنها مستقلة وليس لهم عليها أى وصاية أو رقابة وأنها مثقفة ومتعلمة وليست صغيرة أيضا ومازال الأب والأم على قيد الحياة، هم يعلمون هذا لكنهم يتذكرون أنها فتاة أو "حُرمة" ويجب أن تحصل على الفرمان الذكرى قبل التصرف وأنها ليست مثل ابنه الشحات الذى قارب على الرابعة عشرة من عمره، هو رجل ويستطيع التصرف وفهم الأمور لكنها مسكينة كما قال احدهم "حُرمه" وهذا ما اكتشفته سعاد وهم يتحدثون وأن أكبر

المصائب فى مصر أن الرجل ديك المجتمع واصبحت باقى النساء دجاجات تخضع لهذا الديك حتى لو لم يكن يعرف كيف يعد أرقاما حسابية حتى الرقم عشرة وهكذا طرد الجهل والغباء الذكاء والعلم والثقافة الأنثوية وجعل عُتاة الجاهلية يدلون بدلوهم وأى واحد من هؤلاء الجهلاء الأغبياء إذا ذهب إلى المركز تورم قفاه من جنود الشرطة وهم ليسوا أكثر منه ذكاء ومفهومية فهم فى ميزان واحد؛ الميزان البائس لكن نجاح هؤلاء المتعجرفين لغويا فى أن يدفعوا بالأذكياء من بنات المجتمع إلى هامش الحياة والسبب أنهن "حُرمة" .. كل هذا استنادا لقول الرسول .. وأن النبى قال .. والله جل جلالة قال .. ولا تعرف من أين أتى هؤلاء بتلك الأقوال على لسان الله فى كتابه أو رسولنا الكريم فى أحاديثه، ونظرا لجهلهم فهم يجلسون ليستمعوا لأمثالهم من العامة الذين نجحوا فى فك الخط وقراءة الجريدة ليبثوا فيهم تلك الأفكار والمعلومات الكاذبة، ألم يعلموا بأن أول سورة أنزلت على رسولنا الكريم يوم تلقى الوحى على يد جبريل عليه السلام هى سورة العلق.

بسم الله الرحمن الرحيم :

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)"

صدق الله العظيم

هذا معناه أن الله أوصى بالعلم والتقدم والرقى والأخذ بالأسباب وأن الله لو أراد أن يتعلم جميع أبناء آدم لكان من السهل عليه أن نولد جميعا متعلمون مثقفون ونجيد اللغات والفيزياء وكل العلوم لكنه أراد أن يجاهد أبناء آدم فى الحياة حتى يخرج منهم العالم والفقيه والطبيب والمخترع وهكذا ...

شعرت سعاد بأن سبب المشاكل التى يواجهها المجتمع هى تسرب الأطفال فى الشوارع والأزقة وترك التعليم، كل هذا عائد للأب، لأن الأب المتعجرف الجاهل هو اكبر مرض يواجه المجتمع ولهذا قررت أثناء القيام ببحثها أن تبحث وتفتش عن تلك الحالات هذا هو السبب الرئيسى فيما يقابله الأبناء والبنات من تشتت وضياع شرفهن ومستقبلهن.

توجهت إلى مدينتها الحبيبة المنصورة لتبدأ بحثها مزودة بخطاب من جامعتها فى تولوز إلى رئيس جامعة المنصورة والذى يعتبر أحد العلماء الأفذاذ فى مجال التعليم؛ سخر لها الرجل كل الإمكانيات للمساعدة فى إتمام بحثها بدءا من الاستراحة التى سوف تقيم بها إلى السيارة التى ستقلها بالإضافة إلى الاتصال بمديرية أمن الدقهلية لتزويدها ببعض الرجال للتوجه معها أثناء عملها أو لتوجيهها إلى أماكن المشردين.

قررت سعاد أن يبدأ بحثها بالاتصال بمن كانوا يرافقونها فى مقلب قمامة المنصورة وعاونها الرجال المرافقون لها من مباحث الدقهلية الذين ارتدوا الملابس المدنية كى لا يؤثر هذا على العينات التى تقابلها كما استعانت ببعض المتخصصات فى مجال الخدمة الاجتماعية ليرافقنها فى أبحاثها وعلمت سعاد من المساعدين لها بأن من كانوا معها منذ عشرون عاما تركوا مقلب القمامة ويقيمون الآن فى عزبة القرود يقومون بالتسول ومعهم قِردة يتسولون بها والبعض منهم يقوم بالسطو على السيارات وبعض المارة خاصة النساء بخطف حقائب اليد.

رافقوها إلى العزبة وهناك تقابلت معهم ولم يتذكرها أى أحد منهم فى بادئ الأمر، لقد تغيرت كثيرا واصبحت فتاة يانعة وملامحها وملابسها تدل على مستواها العالى وبعد جهد تذكرها البعض خاصة بريزة الذى اختطفها وعوقب بالحبس سبع سنوات وصنقر و"جولنار" وبعض الفتيات الأخريات اللائى أصبحن سيدات ولهن عائلات وأبناء، أسعدها هذا كثيرا كما اصابهم الفرح بعودة تلك الابنة الضالة إلى أسرتها وكيف تذكرتهم وعادت لزيارتهم وعلمت بما قاموا به من إنشاء عزبة القرود.

***

غادرتهم سعاد بعد أن أصابها الحزن على ما وصلوا إليه

وأصبحوا مكروهين من جيرانهم وتسببوا فى كثير من الأذى، بل اصبحوا بؤرة فساد بين تلك العزب المسالمة، أرجعت أسباب هذا السلوك الى التفكك الأسرى، فلو لم يتم طردهم من بيوت عائلاتهم ولو أن أباءهم وأمهاتهم أحسنوا رعايتهم لما بلغوا تلك الحالة، لقد أضيروا وأضاروا الآخرين بتصدير تلك الأفكار السامة وتحويلها إلى أفعال مفزعة بين ربوع العزب ولهذا قررت أن تعاود البحث عن الحالات المنتشرة فى المجتمع لترى ما هو الشىء الشائع والمنتشر بين المشردين أو الهاربين من ذويهم؛ لابد أن هناك خللا ما فى تلك الأسر والعلاج يبدأ من داخلها وليس من ابنائها المطرودين.

ساعدتها مديرية الأمن والشئون الاجتماعية بتقديم النماذج التى ترغب فى لقائها كما انها اعتمدت على ارتياد الأزقة والشوارع والأرصفة والأنفاق ومحطات السكك الحديدية خاصة فى اماكن تخزين عربات القطار وكل هذا كان بتوجيه من رجال الأمن كما قامت بعدة زيارات للمساجين خاصة سجن النساء لتشاهد على الواقع ما حدث ولتعلم ماهى الدوافع والأسباب التى أدت إلى أن يخرج الإنسان عن تقاليد وعادات المجتمع ويصبح شاذا مما يؤدى إلى هذا التفكك الأسرى الذى هو آفة خطيرة.

## أسباب التشرد والانحلال

بدأت سعاد فى بحث عينات المجتمع بالاتجاه لزيارة سجن النساء فى مدينة القناطر الخيرية .. إلتقى بها مدير السجن مرحبا فقد علم انها قادمة من فرنسا لإجراء بحث هام وأن رؤساءه فى الوزارة طلبوا منه تقديم كل التسهيلات اللازمة للقيام ببحثها الاجتماعي وبعد أن التقت بالعديد من الحالات المؤلمة غيرت اتجاهها إلى سجن الرجال واستمعت إلى العديد من الحالات التى إنصبت فى نفس الإتجاه .. دونت كل تلك الحالات كى تعد بحثها كان لابد لسعاد أن تتجه إلى الأطفال أنفسهم وتدرس حالتهم لأنهم نبت لهذه العينات التى حصلت عليها حتى تكتمل دراستها وتخرج من بحثها بنتائج قيمة.

اتجهت إلى دور الاحداث سواء للبنين أو البنات وهم الذين ارتكبوا جرائم قبل سن الثامنة عشر فيودعوا بتلك الدور لأنهم اصغر عمرا من أن يودعوا بسجن الكبار، كانت تلك الدور تفرخ سموماً لهؤلاء الذين يعيشون بين جدرانها، فتنتشر الرذيلة وسوء الأخلاق والذى لم يفعل أو إعتاد على سلوك منحرف قبل التحاقه بتلك الدور اصبح معتادا عليها؛ فالإشراف الحكومي عليها ضعيف وانتشار الفساد أسرع من انتشار الهواء بينهم، لقد اصبحوا غير نادمين على فعل أى شيء؛ لقد ضاع مستقبلهم وأصبحوا من أرباب

السوابق الذين لن يجدوا لهم مكانا فى المجتمع بالطرق الرسمية والشرعية وأصبح مكانهم وعيشهم فى المجتمع يعتمد على القوة والبطش؛ خارج تلك الدور تتواجد عصابات تنتظرهم سواء للتسول أو السرقة أو الخروج على القانون بأى صورة تتاح لهم.

***

جلست سعاد فى مركز البحوث الجنائية والاجتماعية مع هذا الشاب الذى انضم إليها لمساعدتها فى أبحاثها وأصبح العمل شاقا ومضنيا حيث يقوم الإثنان بتحليل كل عينة على حدة وتجميع الحالات المتشابهه وعمل إحصاء لتعداد الحالات المنتشرة فى المجتمع والبحث عن الأسباب والحلول لكل حالة. كان واضحا أن السبب وراء انتشار ظاهرة الصبية والفتيات الصغيرات على قارعة الطريق ناتج من هذا التفكك الأسرى، فمن الطبيعي أن غياب الزوج عن زوجته فترة طويلة متصلة مع انعدام الرابطة الأسرية مع العائلات وضعف التمسك بالدين والحياء أدت إلى الدفع بتلك الزوجات إلى الانحراف والسلوك المشين الذى انعكس على المجتمع وانتشرت به المشاكل الكثيرة، لأن انحراف هؤلاء الرجال أو تلكم النسوة جعل المجتمع المصرى يتحمل سداد فاتورة انحرافهم وتحمل تبعاتها.

جلست سعاد مع زميلها الذى يعمل طبيبا للأمراض النفسية

هو شاب صغير السن ولم يتعد عمره التاسعة والعشرين، يقوم الإثنان بالبحث واستخراج النتائج حتى يصلا إلى الحلول التى تناسب تلك الأوضاع المأساوية؛ تحدثه:

. "يحيى" هل سمعت عن عزبة القرود؟ نظر إليها مندهشا.

. ايوه .. لكن فى الحقيقة أندهش من فتاة راقية مثلك تطالع بعض الأخبار عن تلك العزبة المشؤمة التى جلبت على كل جيرانها المشاكل، إننا نتابع ما يقومون به من مشاكل مع جيرانهم ولا اعرف السبب من وراء ذلك، فقد وصلت سمعتهم السيئة إلى المجتمع.

ابتسمت سعاد ابتسامة رقيقة جعلته ينسى سؤالها ليتحدثا فى أمور أخرى تخصهم بعيدا عن العمل والوظيفة، أصبحا يتقابلان يوميا ويعملان لأكثر من عشر ساعات، كان لوجود يحيى بجوار سعاد الأثر الطيب والفعال فى استخراج النتائج بعد تحليلها من متخصص ودارس؛ شعر يحيى بميل إلى الفتاة ودفعه هذا إلى زيادة الاهتمام بها؛ فأثر هذا على قلبها الذى لم ينبض بحب للجنس الآخر حتى الآن نظرا لتربيتها الجادة مع "ماما وبابا" كما أن انشغالها بعائلتها فى قريتهم ومحاولة تحسين حالتهم بإمدادهم باحتياجاتهم كى يرتقوا ويعيشوا أحسن وأفضل من السابق أصبح يضيع هباء تحت سوء تصرف شقيقاتها وأزواجهن بالمسارعة فى الإنجاب وكثرة الأبناء الذى التهم كل زيادة وعون منها حتى شعرت

بأن معاونتها لهم لم تأت بنتيجة فعالة بل توصلت إلى رأى بأن شقيقاتها يحصلن على تلك المعونة لإنجاب المزيد من الأبناء كى تمتلئ بهم الشوارع والطرقات وليصبحوا مثل الكثير من أبناء مصر كل اهتماهم الإنجاب لدرجة أن تعداد الشعب المصرى تضاعف فى خلال أربعين عاما واصبحت كل سُبل التنمية وخططها التى تقوم بها الحكومات المتعاقبة لا تأتى ثمارها من هذا الهوس للإنجاب بين الناس وخاصة بين الفقراء والأقل حظا فى التعلم.

أنهت سعاد أبحاثها على واقع المجتمع المصرى، لم تكن الصورة سوداء كما يتبادر إلى ذهن البعض ولكنها كانت مؤلمة ومن الممكن علاجها بكل جدية وحزم مع استخدام كل أجهزة الدولة لمقاومة تلك الظاهرة وعلاجها من جذورها، فلا يجب الاهتمام بإلقاء القبض على المنحرف منهم بعد سقوطه فى ايدى قوات الأمن عند ارتكابه للخطأ أو الجرم لكن يجب علينا إتباع مبدأ الوقاية خير من العلاج، إذا ما هو السبيل الأمثل لعلاج هؤلاء؟ أنهم نتاج للتفكك الأسرى وغير قادرين على علاج ما يقابلهم من مشاكل ماذا تفعل الفتاة "ساره" التى إلتقيت بها منذ عشرين عاماً بعد أن طردتها أمها من منزلها بدافع من زوجها ورفضتها خالتها كما لم يقبلها والدها وخرجت هائمة فى الطريق العام، ماذا تفعل وهى صغيرة لا حول لها ولا قوة؟

عادت بفكرها ثانية، لو أن تلك الفتاة الصغيرة عثرت على مركز لاستضافة أمثالها وتدربوا فكان من الممكن أن تصبح أما فاضلة تضيف إلى المجتمع المزيد من الدعم والتقدم وتربى أبنائها على القيم والفضيلة، ألم يكن المجتمع التى عاشت به لأكثر من ستة أشهر هو مقلب القمامة ومأوى لأمثال هؤلاء.

إذاً لا نريد استفحال هذا الوباء الذى يكمن تحت الرماد وكل مسئول يسلم هذا الملف إلى الذى يليه دون حل قاطع وفى النهاية يدفع المجتمع الثمن غاليا، ألم ادفع أنا ثمن ذلك بخطفى لديهم طوال تلك الأشهر الستة المشئومة وبقيت معهم لا أتعلم شيئا ذا قيمة بل اسمع وأشاهد الانحراف ولو كان عمرى أكبر من ذلك لحدث لى مثل الذى حدث للأخريات اللائى أهدرت كرامتهن واعتدى عليهن.

ماذا ننتظر من أمثال هؤلاء؟ وماذا سيكونون عليه؟ لابد لهم من بث سمومهم فى المجتمع انتقاما لما حدث لهم ومحاولة إثبات وجودهم والعيش بداخله، والمرض النفسى الذى يخلق فيهم الإنتقام من الأسوياء ليحولهم إلى الحالة التى هم عليها لأنهم غير محصنين بالعلم والخبرة فى مجال العمل ويشعرون بالحب الذى يخلق التعاطف فيما بينهم، هذا الحب الذى فُقد بين الأهل ووصل بهم إلى تلك الأماكن، لو شعر كل طفل وطفلة بالحنان والرعاية لما

فرط فى أهله وعائلته، لابد من علاجهم والاهتمام بهم، فكما تنفق الدولة على قطاعات كبيرة فى مجال الخدمات من تعليم وصحة وأمن وصرف صحى وخلافه لابد من الاهتمام بتلك الشريحة، لابد أن أقدم دراستى للمسئولين بالقاهرة؛ بل واتجه للصحف ووسائل الاعلام لنشر ملخص دراستى والأسلوب الأمثل لعلاجها.

اخبرت سعاد زميلها يحيى الطبيب النفسى بأنها سوف تسافر إلى فرنسا لعرض نتائج دراستها على جامعتها ومناقشة رسالتها فى هذا المجال، اسعده هذا وأبدى رغبته بأن يرافقها فى تلك الزيارة وشعرت بفرحة لهذا، اتفق الاثنان على ترتيب سفرهما معا، هو يريد مقابلة والديها والتعرف عليهما، اسعدها هذا لأنها بدأت تشعر بنظراته وقربه منها وهى التى كانت تُمنى نفسها بشاب ترتبط به لتكوين أسرة سعيدة. اخبرته بأن عليه مقابلة أسرتها الأصلية بالمنصورة، اندهش لهذا لإعتقاده بأنها من أسرة فرنسية لكنها اخبرته بقصتها وبكل ما يخصها من معلومات، استمع الشاب لروايتها ولم يستوعب ويصدق ما تقول وتداخلت المعلومات برأسه وأصبح لا يصدق ما ترويه فتاته عن أصلها؟

جلس الشاب منفرداً بأحد الأندية على شاطئ نهر النيل بالمنصورة يستعيد ما أخبرته به سعاد هذا الصباح، حاول هضم تلك المعلومات، هى ابنة لرجل من قرية بجوار المنصورة ومن أسرة

فقيرة بل لقد اختطفت على يد "بريزة" منذ عشرين عاما ومكثت مع هؤلاء القوم ستة أشهر فى اسوأ البقاع وهؤلاء هم الذين انشؤا عزبة القرود التى يعيشون فيها الآن على التسول وخطف حقائب السيدات وسرقة الغسيل من الشرفات والمنازل كما ينتشر الفساد والانحلال بينهم كما ينتشر الطاعون؛ ماذا افعل؟

لقد أخبرت عائلتى بمعلومات مخالفة لما كنت اعتقده عنها، لقد تبدلت المعلومات التى وصلت لأسرتى، ما هو الحل والتصرف؟ انها معلومات مخالفة لما كنت اعتقد لكننى اعشق سعاد وأرغب فى الارتباط بها، لقد كانت صادقة معى ولم تخجل أو تنسى أصلها، كنت أشعر أنها سعيدة لأنها ابنة عوف بائع الخضروات المتجول بالمنصورة، هذا الرجل رقيق الحال كما وصفته لى، آه ياربى؛ لقد تلبدت الغيوم فى سماء مستقبلى الاجتماعي والذى كنت انظر إليه بأنه مثل اليوم الساطع المضيئ الصافي من أى شوائب، ما هذا الحظ السيئ؟ ماذا افعل؟ لا استطيع أن استشير أى فرد من أصدقائى؛ فانا اعتبر تلك المعلومات معيبة فى حقى وحقها لو قدر لى الارتباط بها فلن تكون نقطة مضيئة فى مستقبلى الأسرى.

شعرت سعاد بأن يحيى متذبذب الفكر والعاطفة ومن المحتمل أنه قد عدل عن اقتراحه بسفره إلى فرنسا برفقتها كما سبق واتفقا على ذلك كما خالجها شعور بأنه قد أصبح باردا عاطفيا من

جهتها لكنها لم تأبه لهذا فقد عودتها الأيام على تحمل الصعاب وأن تأخذ مثل تلك الأمور بلا مبالاه كلما قارنتها بما تحملت من مشاكل واجهتها خلال الأعوام السابقة منذ كان عمرها سبعة أعوام لن تنسى الأيام الأولى لعيشها فى فيلا "ماما وبابا" فى المنصورة نهاية عام ١٩٥٨ بعدأن ابتعدت عن أسرتها وصديقاتها وبلدتها لقد شعرت باختطافها قبل أن تختطف بالفعل على يد "بريزة" هذا الشخص الكريه من مؤسسي عزبة القرود والذى مازال حيا حتى الآن رغم كبر سنه.

تحادث سعاد نفسها بأن لديها شعور بأن يحيى كاره لحقيقة الأمر ولهذا فهو لا يستحق قلبي، لقد كافحت ونجحت وتفوقت، ولدى قناعة بأننى أفضل منه، فرغم تلك الصعاب إلا اننى نجحت بينما هو ابن الأستاذ الجامعي والطبيب المشهور ووالدته هى الأخرى استشارية أمراض الكبد، أين هؤلاء من أبى عوف المسكين وسنية أمى الذين يحيون بالقرية فى مجتمع متخلف وبأقل الإمكانيات المادية والصحية ولم ينالا أى قدر من العلم فوالديه قد راعتهما الدولة حتى بلغا ما هم فيه على حساب آخرين أمثال عوف أبى وسنية أمى.

فإذا كان يحيى طبيب أمراض نفسية ناجح فهو نبت من ارض وشجرة قوية فيجب أن يصبح صالحا ناجحا مثل عائلته ولكن

انا سعاد الطفلة المسكينة لهذه الأسرة التى تعيش تحت خط الفقر وفى مستوى اجتماعي اقل ما يقال أنه غير إنسانى؛ لا يا عزيزي يحيى، لن أكون ناكرة لأصلى وسأظل افخر باننى ابنة لتلك القرية ولأبى وأمى المساكين الذين ضحيا بى من أجل لقمة العيش، أنا اعلم شعورهما عندما أرسلوا بى إلى المنصورة لتلك العائلة الفرنسية وكما يقول البعض الآن بأن عوف وزوجته باعا ابنتهما سعاد مثل بيعهم للماعز والأغنام، هذا صحيح ولكنهما يمتلكان قلبا وأحاسيس ولم يبيعانى ولكنهما استردا جزءا من حقهما تجاه الوطن ولو كان الثمن الذى دفع باهظا بحرمانهم منى وبحرمانى من حبهم وقربى منهم.

لقد شعرت يوم افتراقي عن أبى فى أول يوم وهو باك حزين لتركي، كنت أشاهده من خلف السور الحديدي للفيلا يحييني ويلثمني بقبلاته من بين أعواد السور الحديدى ويهديني ( خسة صغيرة "وزه" ) وهو فى أسعد حالاته، كنت ألاحظ دموعه عندما يتركني كل يوم بعد أن يقبلني ومازال السور الحديدى حاجز بيننا وعيناه دامعتان ناظرا إلى الجهة الأخرى.

ألم تخبرني شقيقتي الكبرى عزيزة بما حدث لأبى يوم أن تركني أول مرة بهذه الفيلا وألقى القبض عليه وأرسلة العمدة إلى النقطة ثم إلى المركز وأشبعوه اهانة وضربا حتى تورم قفاه وقدماه بالإضافة

إلى ذل خدمتهم طيلة عشرة أيام وهى فترة التحقيق معه، ألم تخبرني ماذا حدث له و لأمها بعد نبأ العثور عليّ متوفاة فى النيل وعزوفه عن مقابلة الناس وقيام العمدة بإرساله للنقطة والمركز بذريعة البلاغ الكاذب وما حدث له فى المرة الأولى حدث له فى المرة الثانية لماذا تحمل والدي كل هذا؟ من اجل توفير لقمة العيش الصعبة ومن اجل أن ينفق على اخوتى مما وفره من الانفاق عليّ، أشعر بان أبى وأمى قد فرطا فى جزء من جسديهما من اجل باقى الجسد بالتمام مثل ما يحدث أن يتبرع إنسان بكليته لينفق ثمنها على أبنائه، أنه يتألم ويعلم أن هذا خطر على حياته ورغم هذا يفعله عن طيب خاطر من اجل باقى أبنائه، ماذا يستطيع عوف أن يفعل أكثر مما فعل حينما كان يسير كل يوم لأكثر من عشرين كيلومتر من أجل أن يبيع بضاعته رغم أن ملابسه كانت بالية ومهلهلة ومبتلة بمياه الخس فى عز برد الشتاء كما يرتدى حذاء عسكريا مفتوحا دون رباط، ماذا يستطيع أن يفعل أكثر من هذا؟

شعرت سعاد أن أباها وأمها قد ظُلما وضحيا بالكثير، انتابتها نوبة بكاء شديدة لم تعهدها منذ اليوم الذى غادرت فيه بيتها فى العزبة ونامت فى منزل الأسرة الفرنسية ثم الأيام التالية بعد اختطافها، تُحدث نفسها: لن أنسى أبى وأمى وليكن ما يكون ولن أتنكر لهما وسأظل وفية لعائلتي وبلدتي وكل ماهو قيم ونبيل

بالمنصورة بل ومصر كلها، لقد كانت اسرتى الجديدة رحيمة بى وقدمت لى كل ما تستطيع ولم تبخل علىّ ولم تبدل اسمي ولم تغير هويتي ولم تغير ديانتي، كل ما طلب منى أن أقدم لهم البنوة والحنان بينما قدموا لى الكثير، سأكون مثلهم وفية مخلصة وسأقدم كل ما استطيع لخدمة بلدي وقريتي وسوف أفيد أكبر عدد من الشباب مما تعلمته سواء فى مصر أو فرنسا.

***

مضى يومان على مصارحة سعاد لصديقها يحيى بما يخص حياتها وعائلتها وخلال تلك الفترة التى كانت فترة معاناة هاجم يحيى ألم نفسي جعله تمني من الله أنهما لم يلتقيا أو يتعلق بها، شعر أن حبها طغى عليه وآلمه فراقها كثيرا، فقد وقع بين فكي الحب والهوى وبين الواقع الذى نبتت فيه تلك الفتاة، شعر والده بما يعترى ابنه فى حزن بدا مسيطرا عليه وتساءل عما يعتريه من ألم فاندفع الشاب يروى مأساته وأقبلت والدته وانضمت إلى هذا الاجتماع، أنه الإبن الأكبر ولم يقابلا بعد مشاكل الحب والمصاهرة، استمع كلّ من الأب والأم إلى الابن بهدوء وهو يروى قصة حبه والمفاجأة التى لم يكن ينتظرها وبعد أن أنهى روايته التى اثرت على والديه لما يكابده من شعور وضيق رغم أنه طبيب نفسى ورغم هذا لم يشفع له تخصصه فى أن يهرب من مثل تلك الحالات، أنها مشكلة المشاكل

أعالج الآخرين ولكن مشكلتي لا استطيع أن أعالجها بل احتاج إلى عون الآخرين.

نظر إليه الأب بهدوئه الذى عرف عنه فى مجتمعه وقال له: لو أن هذه الفتاة ابنة لتلك الأسرة الفرنسية ولم تكن ابنة هذا الرجل الفقير أيسعدك هذا؟ أجاب يحيى فعلا، كان يسعدني هذا خاصة أن بداية تعارفنا بدأت على هذا الأساس، أجاب الأب: أنت حزين لما بلغك من معلومات أظلمت حياتك الوردية السابقة عنها؟ أكد يحيى استنتاج والده.

اوضح له والده بأنه لم ير أو شاهد الفتاة ولم يتعرف على أسرتها بعد لكنه سعيد بتلك الإنسانة الصادقة التى لم تكذب أو تتجمل والتى لم تفاخر بما ليس فى يدها، فرغم أنها عاشت مع عائلتها المصرية الأصلية سبع سنوات لا تساعد أى إنسان فى تعلم أى شيء لأن تلك الفترة معروفة فى دراسة الطب والقانون أن الإنسان وقتها لا يصبح مميزا ولا يستطيع الاعتماد على نفسه فإذا ذهب إلى شارع غير شارعه لا يعرف كيف يعود ثانية ورغم هذا المجتمع الفقير المتخلف ماديا واجتماعيا وثقافيا إلا انها مازالت متمسكة ومعترفة به ولم تخجل منه ولم تتبرأ من أسرتها بل فخورة بهذا.

قاطع يحيى حديث الأب بأنها لم تقل لى هذا فى بداية تعارفنا

واعتقد بأن هذا كان تغريرا بى، أجاب الأب .. فى بداية تعارفكما كان الأمر تعارف عمل وليس حبا وزواجا وبناء أسرة وعندما شعرت بأن علاقتكما تطورت لم تسر على نفس النهج السابق أرادت أن تكشف لك كل شيء ومن غير المعقول عندما تقابل زميلة أو جارة أن تخبرك بكل ما يتعلق بها، لكل إنسان أسراره الخاصة مثل ما أنت عليه، فلك أسرارك وانا وكل الناس هكذا، هل تعلم سعاد أن جدك (والدي) كان يعمل بائع سريح للجاز فى القرى خلف عربة كارو بصهريج يجرها حمار؟

أجاب: لا لم تعلم ولن أخبرها!! نظر الأب الى إبنه: أن سعاد اشجع منك، أنت تخجل من جدك الذى انجبنى ورباني لأصبح أستاذا جامعيا وأنت تخجل منه رغم انك تحمل اسمه وصفاته تخجل من الإنسان المكافح .. يحيى .. أخبرك بكل ما احمله لك من حب بأن تلك الفتاة أخلصت لأهلها أكثر منك وهى أشجع منك بمراحل.

كانت كلمات الأب ثقيلة؛ فالابن يسأل ولا يستطيع الإجابة وإلا لما أوضح لوالده ما يفكر فيه بعد أن أصبحت امامه مشكلة كبيرة لا يستطيع التصرف حيالها، أما والدته الطبيبة المشهورة والاستشارية فكانت تستمع دون أن تتدخل فى حديث الأب لابنه وبعد أن أنتهى الأب من حواره مع الابن بتلك الطريقة التى

أغضبت يحيى تحدثت لتقلل الأثر النفسى السيئ عليه.

يحيى، لقد سمعت ما حدثت به والدك وانا أرى انك تتحدث وتتكلم فى موضوع هام وهو كيفية اختيار زوجة المستقبل ونحن لا نستطيع أن نكون أوصياء عليك فى اختيارك ولكن يجب عليك أن تعلم أن هناك أمورا هامة تحكم الاختيار وأنت تعلم أيضا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم فى اختيار الشاب لزوجته والتى ستكون أما لأبنائه.

ابني يحيى .. هناك معايير هامة فى الاختيار وكما قال رسولنا الكريم: فاظفر بذات الدين تربت يداك؛ إذاً أنت أعلم أكثر منى ومن والدك بما هى المعايير التى تميز سعاد أمامك، هل هى متفرنجة وتقلد الغرب فى السلوك السيئ وتبتعد عن السلوك الحميد الذى هو منارة الخلق فى ديننا، قارن ووضح لنفسك وبناء على هذا يكون اختيارك، ومن الخطأ أن تضع مستوى عائلتها الاجتماعي والمادي أمامك فهذا ليس بنهج موفق لتقدير قيمة البشر وأنت تعلم أن لدينا العديد من الصداقات لعائلات وزملاء وأيضا لديهم الفتيات الجميلات واللائي لم يتعلق قلبك باى واحدة منهن وهن جميعا على خلق ولكن القلب وما يريد وإذا كان ما يريده القلب متمشيا مع روح الإسلام والعادات والمبادئ التى تربينا عليها فهذا شيء عظيم.

استراح يحيى بعض الشيئ من حديث أمه بعد حالة الضيق والتوتر التى لازمته بعد حديث والده الذى أشاد بما تتميز به سعاد وقلل من قيمة سلوكه، سألها .. أمى .. أنا أحب سعاد واشعر بأنها فتاة جميلة وطبيعية وكأنها لم تغادر مصر وأنها مازالت متمسكة بدينها وعاداتها رغم انها لم تؤد صلواتها إلا منذ عدة سنوات سابقة فلم تكن تعلم أى شيء عن الدين الاسلامى بحكم البعد عن أماكن تجمع المسلمين وبحكم صغر عمرها حينما انضمت إلى الأسرة الفرنسية ورغم هذا كنت سعيدا بها ومازلت ولكن يعترينى بعض الضيق عندما أتذكر أنكِ ووالدي ستتحدثان مع والدها الفقير وأمها الريفية، ماذا سيكون عليه وضعنا العائلي والاجتماعي بين الأهل والأصدقاء؟

ابتسمت له أمه وشعرت أن تربيتها لابنها مازالت متواصلة فهذا واجبها وهذا حقه عليها .. أجابت: يحيى حبيبي .. لقد شاهدت وعاصرت جدك مصطفى والدي، اشار إليها بأنه مازال يتذكر جده وهو سعيد.. هل تتذكر ماذا كان عمله؟ أجاب: أتذكر أنه كان طبيبا بمركز صحة المنصورة وأتذكره وانا طفل صغير والجميع يرحبون به وبى ويطلقون عليه اسم (باش مفتش الصحة) حينما يصل لمكان العمل مستقلاً عربة وزارة الصحة، وكان يأتى فى بعض الأحوال لزيارتنا ويستقلها ومعه سائقه؛ هدهدت الأم على

ركبتيه سعيدة من حديثه، إذاً تذكرت جدك الذى هو أبى، هل تذكر جدك بركات؟ نظر الى والده قبل أن يجيب.

نعم أمى أتذكره جيدا، لقد عاش لعمر متأخر بل ومات وانا فى بداية دراستى بكلية الطب، تسأله: هل رأيت والدك كيف يتعامل معه؟ يجيب:

نعم أمى، كان والدي يقبل يده فى الشارع بجوار عربة الجاز ابتسمت له مرددة: هذا صحيح رحمه الله هل كنت تخجل من جدك؟ صمت قليلا ثم تحدث بكلام بلا معنى أو مدلول:

يعنى .. ثم تكرر .. ماذا تعنى بكلمة يعنى؟ يجيب:

لم أكن اذكره أمام زملائي مثل ما كنت انكر جدي مصطفى .. تسأله:

ولماذا لم تقتف اثر والدك فى احترام جدك؟ يجيب:

لا أدرى، قد يكون السبب أن جدي بركات عندما كان يراني يسرع الىّ ويقبلني ويشترى لى بعض الحلوى من أى محل، لهذا أصبحت مقابلتي له بغرض الحصول على الحلوى فقط، والحقيقة كنت اخجل من بعض الزملاء أن اقول هذا أمامهم، بل إن أحد الفراشين بالمدرسة الثانوي سألني أن كان عم بركات بتاع الجاز قريب لى من عدمه مما سبب لى ضيقا من هذا السؤال وفكرت ما الذى دفع الفراش إلى سؤالى هذا السؤال رغم أنه يعلم بأن أبى

طبيب وأستاذ بكلية الطب؛ تتسائل أمه: لو كنت فى مكان جدك ولك ابن يخجل من عملك الشريف ماذا سيكون عليه شعورك؟ أجابها بضيق:

ماذا تقولين؟ اننى لن ولم أكن فى وضع جدي بركات، توضح وتؤكد على كلامها:

يحيى، كنت ستكون فى حالة جدك أو اقل بكثير!! اندهش الشاب .. كيف هذا؟ توضح له: لو لم يقم جدك بالإنفاق على أبيك لما نال حظه الذى بلغه من التعليم ولما استطاع أبوك ان ينفق عليك ويعلمك .. لو اصطحب جدك أباك معه خلف عربة الجاز لأصبح أبوك يبيع الجاز هو الآخر وكنت تصحبه ولك عربة جاز مثل جدك .. هذا ما أريد أن أخبرك به وأن هذا الجد الذى كان يسير طوال النهار ويبيع الجاز فى أماكن فقيرة أعطى ابنه فرصة كى يتعلم وأن هذا الابن أبوك استغل تلك الفرصة وأصبح متفوقا وحافظ على كيان الأسرة وأصبح بارا بوالده بل كان جدك يرسل بأصدقائه وزملاء المهنة إلى والدك للكشف عليهم وعلاجهم ويلتقى والدك بهم بكل احترام لأنهم أصدقاء والده الذى يعزه ويجله ويكرمه، إن جدك مصطفى الطبيب والذى كان فى ذلك الوقت مشهورا فى مدينة المنصورة لأن عدد الأطباء كان قليلا ورغم هذا لم يخجل أن يضع يده فى يد جدك بركات ورائحة الجاز تحيط بالمكان كما لم يخجل

أبوك من أن يعرفنا بان والده على قدر حاله ويبيع الجاز، بل لم يخجل وهو يعرض علىّ رغبته فى الاقتران بى وأنا مازلت طالبة بكلية الطب بينما كان هو مدرسا مساعدا وأخبرني بكل فخر بأن أباه يعمل بتجارة الجاز فى الشوارع والأزقة.

يسألها: ماما .. ألم تفكري كيف سيكون عليه وضعك أمام جدي مصطفى وأنتِ تخبريه عن مهنة والد الشاب المتقدم إليكِ ..

تجيب:

فعلا اضطربت قليلا، لكن فكرت بأن هذا الأب الفقير الذى استطاع تربية هذا الشاب وتعليمه لهو شيء رائع وأب يفخر به كل إنسان خاصة أنُ خلق وتفوق ابنه كان هو الأساس فى الاختيار ولهذا فكرت أن هذا الخلق نابع من البيت الذى تربى فيه وهما الأب والأم .. أفهمت الآن؟

شكرهما يحيى وغادر حجرتهما بعد أن أزالا ضباباً كثيفاً تراكم على فكره وأثر عليه فجعله مشوشا، اختلى بنفسه يحدثها:

ما المانع أن يكون والد زوجتي فقيراً وما عيب الفقر؟ لقد علمت بأن مصر قبل الثورة كان بها مجتمع النصف فى المائة من الأغنياء أما باقى المجتمع فكلهم من الفقراء أى أن حوالي تسعة وتسعون فى المائة من أبناء الشعب المصرى فقراء، إذاً ما المانع فى هذا؟ كما أن والدتي ذكرتني بالحديث الشريف قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم " تنكح المرأة لأربع .. لجمالها ولحسبها ولمالها ولدينها .. فاظفر بذات الدين تربت يداك" صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

من الواضح أن سعادا تتمتع بدين وإيمان ينبع من داخلها بأن الصدق هو أحد أركانه وإذا لم تكن هكذا ما اخبرتنى بأصل عائلتها ومن منا يفكر بأن هذه الفتاة الجميلة التى تحمل الجنسية الفرنسية وتتحدث اللغة الفرنسية بطلاقة وتحمل شهادة علمية من تلك البلد وتحضر للماجستير ولها عنوان هناك وأب وأم لهما أسماء فرنسية، من كان يفكر بأن تلك الفتاة هى ابنة رجل فقير لا يعرف عن العلم شيئا، لقد كانت واضحة صادقة وهذا دليل على نبتها الطيب، لقد كان رسولنا الكريم أميا لا يعرف القراءة ولكنه من معدن طيب اختاره الله واصطفاه ليكون نبى آخر الزمان.

ابتسامة ذات مغزى وتنهد براحة كأنه عثر على الخلاص والحل لمشكلته التى كانت تؤرقه.

حبيبتى سعاد .. الآن لم يعد هناك شيء أخشاه، فلتكن عائلتك رقيقة الحال مثل غالبية الشعب المصرى وكما أوضحت لى والدتي بأن جدي لأبى كان فقيراً ويكافح من اجل تحسين مستوى أبنائه وهذا أبى وهو الابن الأكبر طبيب وأستاذ جامعي وعمى فوزي محام مشهور وعمى فؤاد عميد بالقوات المسلحة وعمتي رجاء

باحثة بالمركز القومي للبحوث وعمتي الصغرى طبيبة أسنان، إذاً لماذا التهوين من مكانة الناس والتقليل من شأنهم إستناداً على حالتهم الاجتماعية أو المادية، كما قالت والدتي لقد تشرف والدك بأن اصطحب والده معه إلى منزل جدك مصطفى الطبيب وفى منزله الفخم بإحدى عمارات المنصورة المطلة على النيل وبملابس عادية وتغلب عليها رائحة الجاز ولم يخش أو يخجل من ذلك وعندما تأتى سعاد بنفس التصرف الذى سلكه أبى منذ ثلاثين عاما انتقد تصرفها هذا وابتعد عنها.

باكر بإذن الله سوف اذهب للقائها مقدما كل تقدير لها ولأسرتها معلنا لها عن حبى طالبا منها أن تحدد موعداً لزيارة عائلتها برفقة عائلتي وليكن ما يكون وأن غدا لناظره قريب، دلف إلى سريره يمنى نفسه بغد سعيد يرنو إليها وترنو إليه ويسعد بلقائها وحلو حديثها البريء ورجاحة عقلها.

صباح اليوم التالي توجه يحيى إلى استراحة جامعة المنصورة وسأل المسئولين فى الاستراحة عن الأستاذة سعاد عوف فاخبره أحد الموظفين بأنها تركت الاستراحة منذ ساعتين متجه إلى مطار القاهرة لتستقل طائرة شركة الخطوط الجوية الفرنسية "ايرفرانس" المتجه إلى باريس ولقد تركت لك هذه الرسالة، تسلم يحيى الرسالة حزينا لأنها سافرت دون أن يودعها مندهشا لسرعة سفرها فهو يعلم

أنها ستغادر المنصورة غدا وليس اليوم، جلس فى بهو الاستراحة يطالع رسالتها ..

***

الزميل العزيز دكتور يحيى فريد.. تحية طيبة:

اغادر القاهرة صباح اليوم بعد أن وُفقت فى الحصول على مكان بالطائرة المتجة إلى باريس لأنى انتهيت من ابحاثى بمساعدة الأوفياء أبناء بلدي وعلى رأسهم السيد رئيس جامعة المنصورة ورجال أمن الدقهلية ولا أنسى أبدا مجهودك معى ومؤازرتك لى وسوف نظل أصدقاء وسوف أعود إلى مصر خلال أسبوعين بعد تقديم البحث إلى الجامعة ومناقشته .. أعود إلى وطني بعد حصولى على درجة الماجستير .. لك شكري وتقديري وأرجو ان أقابلك بعد عودتي لنرى ماذا ستكون عليه نتائج البحث وطرق علاج المشاكل التى توصلنا إليها معا .. تحياتي إليك ودمت صديقا وزميلا وفيا..

سعاد عوف

***

غادر الاستراحة حزينا لما حدث من رد فعلها لتصرفه معها فى آخر لقاء بينهما مؤنبا نفسه بأنه كان اقل لطفا ومودة معها وهى صاحبة الذوق وحسن التعامل معه بل وتركت له رسالة تشكره فيها

طالبة منه استمرار التعاون بينهما .. آه حبيبتي .. انكِ راقية ولم تخلطي بين ما حدث من تصرف سئ معكِ وبين الزمالة والعمل .. عاد إلى منزله مهموما وجلس فى حجرته فقد أعياه سوء تصرفه عن إيجاد مخرج له وهاهو ينتظر والديه كما كان يفعل وهو طفل صغير كى يقدمان له يد العون .. إن الآباء والأمهات لا نستغني عن خبراتهم ولكن لمن تقول .. فنحن كشباب نشعر بأننا قد نضجنا وأننا فى غير حاجة لعون الوالدين، لقد أخطأت ويجب علىّ أن استفيد بخبراتهما وحبهما لأن تلك الخبرات والنصائح تصبح غالية لأن حبهما لأبنائهما لا يعوض؛ سعاد .. أعتذر للمرة الثانية .. لقد تربيت ونشأت وترعرعت بعيدا عن والديك ورغم هذا تقديرهم وتذكريهم ولا تهضمى حقهما أو تتخلي عنهما .. أنها علاقة أب وأم أصيلة وليس علاقة أدبية رغم اعترافك بأن عائلتك الفرنسية لها الفضل الأول والأخير بعد الله عز وجل فيما وصلت إليه .. وكما قال امير الشعراء يصف الأخلاق بين الناس ..

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت  فان هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

بعد الظهر عاد والدا يحيى من عملهما مرهقين واعد الطاهي الطعام وبعد أن استعدا لتناول الطعام بحضور الأبناء المتواجدين والبعض مازال بالجامعة لتلقى محاضراته شعر كلٌ منهما بأن يحيى مازال يعتريه حزن وكان هذا باديا على وجهه .. بعد الغذاء جلس

الأب وإلام يتناولان الفاكهة فى فراندة شقتهم المطلة على النيل وطلبا من يحيى أن يلحق بهما .. بادره الأب .. ما هى آخر أخبارك؟ .. بعد أن تنهد وأطلق بعض الزفرات التى تعلن عما وصلت إليه حالته اخبرهما بما حدث صباح اليوم ومغادرة سعاد القاهرة عائدة إلى فرنسا والخطاب الذى تركته له.

عرض عليهما الخطاب وقرأه كلٌ منهما .. اكملت الأم حديث الابن .. ابني يحيى، يجب عليك أن تصطحب أباك مساء الخميس بعد غد وتذهبا لزيارة والدها والتعرف عليه .. هل لديك العنوان؟ نعم أمى، فأنا اعلم كل بيانات عنها، فقد أخبرتنى بكل المعلومات عن أسرتها سواء اسم القرية واسم والدها واسماء اخوتها، لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا واخبرتنى به، وافق الأب على إقتراح زوجته.

يوم الخميس وبعد الإنتهاء من أذاء صلاة العصر قاد الدكتور فريد سيارته وبجواره ابنه يحيى متجهين إلى القرية فعبرا النيل من فوق كوبري طلخا وبعد أن سارا مسافة قليلة واتبعا الوصف التى زودت بها سعاد صديقها يحيى مع بعض الاستفسار كل بضعة كيلومترات للتأكد من أنه الطريق المنشود، قطعا مسافة تزيد عن سبعة كيلومترات؛ نظر الأب إلى ابنه يحادثه:

هل رأيت بنفسك كم قاسى هذا الأب المسكين ليقطع تلك المسافة كل يوم سيرا على الأقدام ذهابا وعودة بالإضافة إلى ما يقطعه

داخل المدينة كى يبيع بضاعته، أنا الآن اشعر بشعور تلك الفتاة وقد أخبرتك أمك أمس الاول عن حالة أبى، كنت مثل سعاد واشعر بما تشعر به وأبى يقطع كل تلك المسافات ورائحة الجاز حوله من كل مكان حتى أثناء تناول طعامه مهما اغتسل كانت تظل عالقة به، كنت أذاكر فى كتبي وانا اسمع رنين الجرس الذي ينبه الناس بأن بائع الجاز عم بركات قادم وينادى عليه البعض:

عم بركات .. عايز صفيحة جاز. فينظر إليهم قائلاً حاضر يا ست هانم، يحمل أكثر من عشرين كيلو هى وزن الجاز حتى الدور الثالث أو الرابع ليبيع بضاعته نظير عدة مليمات يكسبها، كنت اشعر بالأسى عليه وأريد ترك المدرسة كى أساعده خاصة عندما يعود آخر اليوم منهك القوى متعباً مما بذله طوال اليوم وأمى تطيب من خاطره وتضع أمامه الطعام .. بقايا طعامنا انا وأعمامك .. يسألها قبل أن يمد يده بكسرات الخبز المتبقية منا .. الولاد أكلوا ياعواطف؟ .. تبتسم له بكل سعادة .. الحمد لله .. أكلوا وحمدوا ربنا، تستدرك قائلة: معلشي يا أبو فريد .. اللحمة خلصت .. أصلى اشتريت ربع رطل لحمة نصهم دهنه علشان اعمل تقلية الأكل لكن العيال أكلوا كل حاجه، يضحك من حديثها ويحدثها قائلا: تعرفي ياعواطف، انا شاعر انى أكلت ديك رومي من كلامك الحلو .. ياه والله شبعت لما الولاد شبعوا وربنا يديم عليهم

الصحة وينجحوا يارب .. قادر يا كريم، تؤمن أمى على دعواه .. يقبل علينا عارضا إحضار أى شيء من الخارج قبل أن يتوجه للنوم .. نعتذر فلسنا فى احتياج أى شيء لسبب واحد استنتجناه قبل ذلك وهو بأنه لم يكن لديه المال لشراء بعض طلباتنا التى نريدها .. تخبره جدتك .. أعملك شاي وإلا تنام بدرى علشان تستريح؟ يجيبها .. لا .. حاروح أنام .. تعرض عليه ثانية .. طيب .. شوية شاي تحلى بيهم بقك بعد أكلك .. يجيب: انا بأحلى بقى بطريقتي ويأخذ من كل واحد منا بوسه من خده؛ يذهب أبى لينام وأشاهد عروق يده تنتفض مما يحمله كل يوم من الجاز لزبائنه كل فى مسكنه، هذا ما كنت ألاحظه، أرأيت لو اننى بعد أن تعلمت وذهبت أتزوج أمك دون أن اصطحب والدي معى خجلا من عمله أو مظهره ترى ما يكون عليه حاله بعد كل ما شرحت لك؟

نظر يحيى إلى أسفل مسلطا عينه على حذائه كأنه يجيب على والده باننى لا أساوى هذا الحذاء وقد لمعت عيناه بدموع تريد أن تخرج من مقلتيها.

ها قد وصلنا .. قالها الدكتور فريد لابنه الطبيب يحيى.

استفسر من أحد الفلاحين عن سكن عم عوف، بعد أن وضع الفلاح رأسه بداخل السيارة حتى لامست طاقيته رأس السائل الدكتور فريد.

. بتسأل على مين؟ يعيد الرجل:

. عم عوف بتاع الخس.

. هيييه .. جصدك عوف أبو وزه؟ تحير الرجل فى إجابته

ـ والله مش عارف أبو وزه أو أبو بطه .. المهم عوف بتاع الخس .. ما زال الفلاح واضعا رأسه فى داخل السيارة ووجهه ملاصق لوجه الدكتور فريد

ـ ايوه مافيش غيره، إحنا محدناشى غير عوف أبو وزه .. أصله لمؤاخذه الناس فى البلد طلعوا عليه الاسم ده علشان كان بيبيع الوزه بتعريفه، اندهش الدكتور فريد متسائلا:

. الوزه بتعريفه!! ازاى؟ دا الوزه تساويلها اليومين دوول عشره جنيه، ضحك الفلاح وهو يؤكد للدكتور.

. بلاش مجلته "تريقه" يابيه وزه إيه وبطه إيه انا جصدى وزه الخسه يعنى خسايه صغيرة، اضحك هذا كلّ من الأب والابن حيث داخل الدكتور فريد اعتقاد بأنه يستطيع شراء عدد كبير من الاوز بهذا السعر الرخيص .. طلب الدكتور فريد من الفلاح أن يستقل معه السيارة حتى يمكنه الاستدلال على سكن عم عوف أبو وزه!!

سارت السيارة فى حواري القرية تتبعها سحابة من الأتربة وبعض الصبية سعداء بوجود ترمبيل جاى من البندر، أصدر المرافق أمرا للسائق "الدكتور فريد"

. بس وجف هنا يا اسطي.. ايوه على ايدك .. ما زال الفلاح قابعا بداخل السيارة .. ينادى من داخلها .. ياعم عوف .. ياعم عوف .. انتبه عوف الذى كان يجلس على دكه خشبية قديمة مائلة السقوط به أرضا وهو فى سابع نومه ويرتدى جلبابا بلديا قديما وينتعل بلغه قديمه لا تعرف لونها ونصف قدمه خارج تلك البلغة وقد أصبحت فى لون الأرض.

. مين؟ الواد عجيبه، إيه ياوله اللى مركبك الكومبيل الحلو ده

ـ الأسطى واللي معاه بيسألوا عليك يظهر أنهم زباين .. نظر الدكتور فريد إلى المرافق له شاكرا مساعدته .. أقبل عوف

ـ خير يا ساعات البيه .. أى خدمه .. والنبي الخضار اللى حدايا مش ينفعكوا دا انى بأفكر أخده ولا مؤاخذه للبهايم .. أصله حَطب ونشف ممكن أبعت للواد دعبس اجيبلكوا من عنده طلبكم.

ـ إحنا عايزين نكلمك على جنب وياريت نروح نزورك فى البيت حرك عوف طاقيته إلى الخلف وقد تنسلت حوافها وتدلت منها بعض خيوطها وهرش فى مقدمة رأسه .. عايزين تروحوا معايا للدار .. وما له .. يا ألف أهلا وسهلا. اشار الى طفل فى العاشرة.

. ولا يا إبراهيم .. خد يا وله .. أنت يا وله جاك خابط فى نافوخك. اقبل الصبي.

. عايز إيه ياسيدى؟ أمسك به من كتفه ..

. وله .. طياره على بيت ستك سنيه وعرفها أن سيدك جاى ومعاه شوية أفنديات عليهم الجيمه .. فاهم يا وله؟

. حاضر يا سيدي طياره، اسرع الطفل الذى كان واضعا عود حطب من نبات الذره بين ساقيه وكأنما يمتطى حصانا واسرع للهدف المرسل إليه، اشار عوف إلى احد الباعه

. وله يا برعى، اقبل الشاب.

. ايوه ياعم عوف.

ـ اجري يا وله بسرعه هات لجوز الأفنديات دوول سطلين خروب ساجع، اسرع الشاب بين رجاء الضيفين بالا يتعب نفسه فسوف يذهبان إلى المنزل للجلوس معه، اقترب عوف من السائق "الدكتور فريد" وابنه يحيى ومازال يجهلهم حتى الآن، واشار بيده اليمنى جهة رأسه موضحا لهم:

ـ على فكرة انا نور وافهمها وهيا طايره .. انتم لازم جايين من حدا البت سعاد الست الدكتورة !! ابتسم الاثنان من جملة البت سعاد الست الدكتورة، اجاب يحيى ..

. مظبوط ياعم عوف، ضحك الرجل قائلاً:

. اما براوة عليك يا واد ياعوف، ابدى دهشته قائلاً:

ـ أمال الواد سليم أبو أعمر بيجول عليا مافيش فرج بينك ياعوف وبين الحمير غير الديل، اخص عليك راجل عديم المفهوميه

والزكاوه !!! طلب منهما ترك السيارة فى هذا المكان لان منزلهم فى مكان ضيق لا يسع سوى الحمير وهى تحمل الغبيط المملؤ بالسباخ، وافقاه الرأى ورافقاه إلى المنزل سيرا على الأقدام، شاهد زوجته تقف على باب المنزل وقد ارتدت جلبابا نظيفا وتلفعت بطرحة سوداء واضعة حرف الطرحة على فمها لزوم الحشمة، قام عوف بالتعارف بينهم.

ـ الأفنديات من طرف المحروسة سعاد .. ابتسمت سنية لهما ابتسامة وضاءة قائلة.

ـ أهلا بالأفنديات .. شرفوتنا وشرفتوا الدار، اشارت إليهم بالدخول فأسرع عوف أمامهما مفسحا الطريق فشاهد بعض الماعز محاولة الاشتراك فى الترحيب بالضيفين فصرخ طالبا أن يفسحوا الطريق وتبين للضيفان أن الماعز تتفهم صيحة عوف إذ انصاعت لأمره وأفسحت الطريق، توقف عوف أمام كنبة بلدى مشيرا للضيفين بالجلوس، جلس الدكتور فريد وابنه يحيى بينما جلس عوف على الكنبة المقابلة والأقل فى المستوى فلا توجد عليها شلته منجده مثل التى جلس عليها ضيفاه، يعيد التعارف بالضيفين.

. الافندى من طرف سعاد، ثم سأله اسم الكريم إيه؟

. الدكتور فريد، رحب بهما بأن ربت على صدره بتلك العلامة التى تفيدهم بأنكم بقلبي، عرف زوجته بإعادة الاسم:

سى الدكتور جايب الشهرية من بنتنا سعاد واللي معاه ده .. الصبي بتاعه، ضحك الاثنان بعمق بينما اندهشت سنية!

- ازاى الكلام ده .. ماهى سايبه الفلوس جبل ما تسافر بلاد بره.

انتبه عوف إلى ذلك، مرددا: اى والله، نظر للضيفان بدهشة قائلاً:

- ماهى البت سايبه لأمها الفلوس، أمال الأفندية جايين ليه؟ اعتدل الدكتور فريد فى جلسته بغرض الإجابة على إستفسارات عوف

- انا الدكتور فريد؛ أشار إليه عوف.

- ايوه ياسى الدكتور، عرفنا انك الدكتور وبسلامته يبجى الصبى بتاعك .. جصدى التمرجى .. مش كده وألا انا مخى على جدى؟

- ياعم عوف، سيبنى أتكلم .. مش معقول ملاحق عليا كده .. اللى معايا ده يبقى ابني يحيى وهو طبيب أيضا .. رحب عوف وزوجته بالضيفان ثانية. اكمل الدكتور فريد ..

- الموضوع أن ابني يحيى عايز يتقدم ويطلب ايد بنتك سعاد .. أدى كل الحكاية وهو عرفها من حوالى أربع تشهر .. قلنا نيجى ونتعرف عليك وتتعرف علينا ونشوف رأيكم إيه ؟

- والله يا سعادة البيه الحكاية دية عايزه تسألوا فيها الخوجاية مرت الخواجة .. سعاد عايشه معاهم من عمر يامه ومش معجول نتعدى على الراجل والولية يجولوا علينا إيه؟

نظر فريد لابنه واكمل حديثه:

. بس سعاد فهمت يحيى ابني أنك أبوها وأى حاجه زى كده تبقى معاك، اسعد هذا عوف بينما ظهرت الفرحة على وجه سنية فأطلقت عدة زغاريد اسعدت الجالسين واقبل بعض النساء من الجيران كل منهن تسأل عن سبب تلك الزغاريد، امتلأت الحجرة بالقادمين رجالا ونساء ابتهاجا بتلك الأصوات التى تعبر عن معنى الفرح والسعادة، قام عوف بتعريف جيرانه بالضيفين

ـ البهوات دوول دكاترة ونسى اسميهما.. بعد جلسة طويلة أرهقت الأب وابنه استطاعا أخيرا أن تصبح الجلسة عائلية لكن بحضور حامد شقيقها الأكبر وشقيقاتها وأزواجهن كما أشعرهم كل زوج أخت بأنه الحامي لحماها والمدافع عنها وهو وكيل النيابة الذى يجب عليه استجواب وفحص المتقدم لشقيقة زوجته، بدأت الأسئلة تتدفع دون قيود ودون مراعاة الذوق والمجاملة.

ـ هيه والدكتور فين؟ يعنى إيه دكتور نفساوى؟ يجيب زوج أخت أخرى .. يعنى بيجولك يا مصيلحى انه الدكتور والعياذ بالله بيعالج المجانيين ويبعتهم المرستان .. أمال إيه؟ يعنى إن شاء الله حتكون نهايتك على أيده!! وآخر يسأل .. هيه والدكتور بيجبض كام فى الشهر؟ فلا يسمع أجابه .. يعلق السائل: هيه خايف من الحسد وألا تكون خايف من الحسد .. أنت حر وبخاطرك .. عن إذنكم وبدأ واحدا يلى الآخر فى مغادرة الدار احتجاجا على ذلك.

بقى الضيفان الذى ضايقهما سلوك أزواج شقيقة سعاد لكن بحكم الخبرة علم الدكتور فريد طباع أهل الريف ويعلم أن هذا السلوك نابع من الحب وليس شيئا آخر، اتفق فريد مع عوف على تأجيل الموضوع حتى حضور سعاد وظهرت السعادة واضحة على وجه والديها، غادر الأب وابنه الدار وكان فى وداعهم كلّ من عوف وسنية وابنه حامد حتى باب السيارة.

فى الطريق استفسر يحيى من والده عن انطباعه عن هؤلاء الناس وأجاب الأب بأنهم مثل باقى المصريين الطيبين الذين لا يدارون شيئا ويصبح كل شيء واضح فى حديثهم وتصرفاتهم .. كان الانطباع حسنا وعادوا إلى شقتهم قريرا العين والفؤاد.

استقبلت الأم الأخبار التى نقلها كلٌ من الأب والابن عن تلك الزيارة بالسرور والارتياح خاصة انها شاهدت أثر ذلك على وجه ابنها الذى غلفه هدوء تام ظللته أحلام السعادة للمستقبل المنشود.

وصلت سعاد إلى مدينة تولوز واستقبلتها عائلتها هناك بكل سعادة وشوق وحضر كل من مكسيم وزوجته وابنتيه لاستقبال العمة سعاد التى أحضرت لهم بعض الهدايا من مصر خاصة مشغولات يدوية من خان الخليلي وبعض المصنوعات اليدوية من إنتاج الأسر المصرية التى بدأ نشاطها الانتاجى المنزلي وبالأخص فى مجال ملابس السيدات ومنها بالطبع قمصان النوم وما عليها من

رقة وزخرفة والقماش المصرى المصنوع من القطن الناعم الملمس على أجساد النساء والأقمشة المخصصة لملابس الأطفال ..

بعد مُضى يومين حددت إدارة الكلية التى تدرس بها سعاد اسم رئيس القسم الدكتور موليه موعدا لعرض بحثها عن اثر التفكك الأسرى على الفرد والمجتمع .. إلتقت مع لفيف من الأساتذة وقدمت لكل واحداً منهم نسخة عن بحثها الذى استمر فى مصر أربعة أشهر بينما بدأته قبل هذا فى تولوز ومرسيليا ونيس والعاصمة باريس .. كان بحثا شاملا وخاصا بمصر والاسباب التى أدت إلى ذلك وطرق العلاج الناجحة لمثل تلك الحالات .. تحدد موعد المناقشة بعد أسبوع كى يتسنى لأساتذتها الاطلاع على الأبحاث وتناول نقاطه المختلفة لمناقشتها فيه .. مضى أسبوع وها هي سعاد تجلس بالقاعة المخصصة لمناقشة بحثها وحضر بالإضافة إلى أسرتها الفرنسية بعض الصحفيين والإعلاميين الفرنسيين لتغطية هذه المشكلة العالمية التى تؤرق جمعيات حقوق الإنسان وهيئة "اليونسيف" التابعة للأمم المتحدة والمتخصصة بأمور الطفولة فى العالم .. استمرت المناقشة أكثر من وقتها المعتاد والمحدد فى مثل تلك الأحوال وبدا واضحاً جودة البحث من تعليقات بعض المتخصصين الذين حضروا جلسة المناقشة حين الإستفسار عن احدى النقاط فكانت إجابات سعاد واضحة عليها

فيمتدح الممتحن الإجابة، استقرت اللجنة على منح سعاد درجة الماجستير بتقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف والإشادة بما قامت به من مجهود وسط مجموعات من الخارجين على القانون.

فى الفيلا تلقت سعاد مكالمة تليفونية من احدى القنوات التلفزيونية لتحديد لقاء معها يبث على الهواء لعرض أهم نقاط بحثها على الجمهور الفرنسي والأوربى نظراً لأن تلك القناة تبث ارسالها على القمر الصناعي للدول الأوربية المشتركة فى السوق الموحدة قبل إنشاء الاتحاد الاوربى .. تواصل الحديث مع معدة البرنامج بينما "ماما وبابا" ينظران إليها بكل سعادة وهما يتذكرانها منذ عشرين عاما وهى طفلة حزينة لفراق الأهل وتعاودهم ذكريات فترة اختطافها والتى كادت أن تؤدى بحياة أمها "جين" ثم تذكرا نموها العقلي والجسدي، تقترب جين من زوجها دوفان تحدثه.

اعتقد دوفان أنه قد آن الأوان لأن ترتبط سعاد بشاب يسعدها ويسعدنا وتنجب لنا الكثير من الأبناء مثل مكسيم .. لقد توقفت زوجة مكسيم عن الإنجاب وأنا لا اشعر بالحياة إلا بوجود الأطفال .. إن وجود الأطفال يخبرني بأنهم صغار يحتاجون الزمن والوقت للنمو ويشعرونى بحيويتى وراغبة أن أكون بجوارهم فى مرحلة النمو واراهم يكبرون ويتطورون وهذا يدفع بى إلى مزيد من الحيوية لشعورى بالقرب من نباتات يانعة تريد النمو فاكتسب هذا منهم

وأسير على نهجهم بدلا من الركون والهدوء فقد أصبحنا نعانى من الألام تحت وطأة الزمن وتردى حالتنا الصحية من حين لآخر ..

نعم حبيبتي جين .. أؤيد تلك الأفكار ولا نريد أن نقع فى الخطأ الغير مقصود والذى وقعنا فيه قبل ذلك بترك الفتاة بعيدة عن دينها فترة حيث كنت اشعر بضيق وحزن وألم لهذا وشعرت فى قراره نفسي باننى قد ارتكبت خطأ فادحاً معها وما كان يجب علىّ هذا الفعل وحدث سهوا دون قصد وما لا اقبله على ابني مكسيم حين كان فى مثل عمرها لا اقبله على الآخرين ونحن من بلد انتج للعالم حرية الراى وحقوق الإنسان وعدم التفرقة بين ديانة وأخرى.

عطلة نهاية الأسبوع الثالث لوجود سعاد فى فرنسا تخلفت عن موعد سفرها إلى مصر لإنهاء ما بدأته بمهمة البحث عن جذور المشكلة ووضع الحلول العملية لها وتنفيذها، لم تقم بهذا البحث بغرض الحصول على الشهادة والعمل بها كمدرسة بالجامعة، بل كان هدفها الأكبر والأهم التى عانت وعاشت من أجله هو هذا المجتمع، ظهرت سعاد على شاشة البرنامج التلفزيوني بجمالها الساحر وغالبية المشاهدين سواء من فرنسا أو من خارجها كانت تشاهد وتتابع البرنامج نظرا للتنويه عنه قبل يومين وإعطاء نبذة كى يجتمع اكبر عدد لمشاهدته وبخاصة المهتمين بالأمور الاجتماعية.

أثناء حديث سعاد التليفزيونى كانت تعرض بعض لقطات

لهؤلاء الناس سواء رجالا أو سيدات أو أطفالا من الجنسين تعبر عن حالتهم ونفور المجتمع منهم وبخاصة أقربائهم وطردهم إلى الشارع والتخلص منهم مثل أى إنسان أنهى سيجارته والقي بعقبها على قارعة الطريق تدوسها الأقدام وتغلفها الأوحال .. كانت الصورة عاملا مساعدا لأنها التقطت فيلما تسجيليا قصيرا عن الأطفال الأسوياء بالمجتمع وهم فى مدارسهم وظهر مدى العناية بهم ومقارنتهم بهؤلاء المساكين الذين تغلفهم القذارة والإهمال ويدفعهم هذا للعوز فيهاجمون الناس للسرقة أو التسول.

كانت المقارنة واضحة لأنها تطرقت إلى عزبة القرود بعد أن اعدت بعض الصور عنهم وتحدثت عن مدى الإجرام الذى وصلوا إليه .. وقفت تنبه المجتمع بأنه إذا لم ننتبه لمشكلة المشردين فى الشوارع سوف تزداد أعداد التجمعات المماثلة لعزبة القرود ..

احدث بث البرنامج صدى على المستوى الأوروبى، بل وعقدت الجمعية الوطنية الفرنسية اجتماعا للتعليق على رسالة الماجستير التى نالت عنها سعاد درجتها العلمية وعن حديثها التليفزيوني والذى كان مؤيداً بالصور، طالبوا بحضور رئيس القسم الذى منحها الدرجة العلمية واثنوا عليه وعلى زملائه وعلى الطالبة صاحبة البحث طالبين من الحكومة الفرنسية زيادة الدعم لدول العالم الثالث لعلاج هذا الموضوع وأن يصبح الاستاذ دكتور موليه

هو المشرف على توزيع ومتابعة تنفيذ إعانة الحكومة.

ابلغ موليه سعاد بهذا الخبر الذى أسعدها طالبا منها الاستعداد لمرافقته إلى مصر لمقابلة المسئولين فى وزارتي الشئون الاجتماعية والداخلية ومحافظة الدقهلية صاحبة التجربة الرائدة فى بحث سعاد وابلغها بأن السفارة الفرنسية فى مصر أبلغت المسئولين المصريين بهذا الأمر الصادر من مكتب رئيس الوزراء الفرنسي ..

قبل مُضى أسبوع اتصل موليه بسعاد يخبرها بأن تستعد بعد باكر لمرافقته إلى القاهرة للبدا فوراً فى تنفيذ أولى مراحل الإصلاح والتى تضمنتها رسالة الماجستير، أصبحت الأضواء مسلطة عليها وهى ترافق تلك الشخصية العلمية وذات المسؤلية الهامة بالحكومة الفرنسية والتى كانت تربطها بمصر صلات صداقة قوية.

التقوا بالمسئولين المصريين والتى كانت تؤرق مضاجعهم تلك المشكلة ويعلمون طرق العلاج ولكن لا يستطيعون توفير الميزانية لهذا المشروع وقد استفحلت المشكلة لدرجة أن وزارة الداخلية أرسلت بالعديد من التقارير التى تنبئ بخطورة هؤلاء فى المستقبل ومحذرة من تفشى وباء مماثل لما حدث فى عزبة القرود.

أصبحت سعاد شخصية محورية فى برامج التلفزيون المصرى وتكالب عليها المعدون والمخرجون للقيام بأحاديث معها وتطوع البعض لعرض سيرتها الذاتية وإنها ابنة المسيو دوفان الفرنسي

واعتنقت سعاد الإسلام بعد حضورها لمصر ووقوعها فى حب شاب على هضبة الأهرام ومابين سحر النيل وأساطير الأجداد فى الأهرام بدأت قصة حبها الرقيقة القوية ولهذا قررت العودة لمصر لتقابل هذا الحبيب كما أفردت صفحات المجتمع بعض مقالات لهذا الغرض والبعض أفاض فى مستوى سعاد الأسرى وعائلتها التى تصل فى النهاية لعائلة الملك لويس التاسع ونابليون بونابرت!

قبل حضور سعاد إلى القاهرة اتصل بها يحيى مهنأ على حصولها على درجتها العلمية واخبرها بزيارة أسرتها فى القرية وسعادته هو ووالده بهم، أثلج هذا قلبها الأبيض الذى لم ينبض بحب شاب من قبل وأغدقت عليه شكرها وثناءها طالبة منه انتظارها فى اليوم والساعة وموعد الرحلة التى حددتها له فى الاتصال التليفوني ..

جلس عوف فى الحارة والتى تعتبر من الحواري المغلقة فليس بها سوى منزلين أو ثلاثة ومقفولة من نهايتها .. جلس عوف على حصيرة وأمامه تلفزيون الأسطى "عبده بلف" صاحب ورشة لنفخ الكاوتش وإصلاحه بعد أن مّن الله عليه بقرشين احضرهما من دول الخليج كما احضر معه الرجل من رحلته هذه تلفزيون ملون وأبى على نفسه إلا أن يشاركه أهل الحارة متعته بالفرجة والمشاهدة .. وضع الرجل التليفزيون على (كنبة نورج قديم) والناس تشاهد

أحاديث سعاد بينما عوف ضاحكا قائلا: الله .. جابوا الكلام الحلو ده عن البت منين؟

جموع المشاهدين تشاهد سعاد وهم فى غبطة فرحين بابنة قريتهم ويسألون عوف:

. إلا جولي ياعوف .. مين اسم الله عليه جريبكم اللى اسمه "لوس أفندى" وينفجر بعض طلاب المدارس ضاحكين ويصححون الاسم بأنه لويس ملك فرنسا .. يصفق الناس سعداء بان عوف جريب الخواجة لوس ملك فرنسا .. والبعض يسأل ..

. لكن ازاى يا عوف الراجل ده جريبك وأنت جاعد هنا بعيد عنه .. يا شيخ خد مرتك وعيالك وروح حداهم .. فيجيب احدهم:

بأن عوف ولد هنا ولان جده الخواجة لوس قبض عليه وسجن فى دار (أبو لجمه) "لقمان"!! فى المنصورة وبعدين الراجل جال حجكم عليا ومعنتش حاجى أحاربكم تانى وجال علشان تعرفوا انى بأحبكم حاجوز منكم .. تعرفوا أجوز مين؟ .. الجموع تسأل .. مين يا ترى؟ يجيب :

البت نفيسه العمشة اللى كانت فى الوقت ده مجوزه الواد فاروج النتن غفير العمده.

. "تعلق" النسوة .. ياه .. يعنى ستك تبجى نفيسه ياعوف؟

## تطبيق الإصلاح

فى القاهرة توالى اجتماع كل من دكتور موليه ومساعدته سعاد عوف بالمسئولين المصريين الذين كانوا سعداء بتلك المنحة التى تقدمها الحكومة الفرنسية لمجتمع الشاردين من عائلاتهم ولم تكن المنحة نقدية بل كانت عينية وستتولى سعاد الإشراف على تنفيذها .. رحب المسئولون الذين إلتقوا مع كلّ من مسيو موليه وسعاد ولهذا قاموا بتقديم كل الدعم لهما سواء المعنوي أو بالمعلومات واستعدت أجهزة الدولة لتنفيذ تلك الأفكار التى احضرها معه مسيو موليه وهى بالطبع واردة فى دراسة سعاد التى نالت عنها شهادة الماجستير .. تدور أفكار المنحة بصورة مختصرة عن برنامج الدعم المقدم من الحكومة الفرنسية الذى يحدد إنشاء مجتمع للصبية والفتيات المنتشرين فى الشوارع والذى يطلق عليهم المجتمع ووسائل الاعلام بأطفال الشوارع على أن تتم بالطريقة الآتية:

مبنى لإيواء وإعاشة لكل نوع .. أى مكان للفتيات ومكان آخر للصبية .. تشرف عليه وزارة الشئون الاجتماعية كما يقدم الدعم الدينى له كلّ من الأزهر الشريف والكنيسة الارثوزكسية فى مصر بشرح الخطايا التى من المحتمل أن يكونوا قد ارتكبوها فى الفترة الماضية من حياتهم فى ظلام المجتمع وهى بالطبع ضد الدين وتعليمات الله سبحانه وتعالى .. توجيه ثقافي وادبى من

أساتذة متخصصين .. علاج نفسي واجتماعي .. تدريب على الأعمال التى سيقومون بها لينخرطوا فى سلك المجتمع المنتج والعامل

كانت الوجهه الأولى لهم محافظة الدقهلية موطن البحث والتى نشأت بها عزبة القرود من بين أوحال مقلب القمامة واللقطاء والخارجين على القانون .. حدد محافظ الإقليم المنطقة الشرقية ليبدأ بها المشروع نظرا لتوفر مساحة من الأرض البور والتى لم تعد صالحة للزراعة لكثرة الأملاح بها وتنفيذا لسياسة الدولة بعدم الاعتداء على الاراضى الزراعية.

تم تجميع اكبر عدد من البائسين المنتشرين فى الشوارع والأزقة بمعرفة رجال الأمن وحددت مدرستان لكل جنس مدرسة للإقامة والإعاشة المؤقتة حتى يتم الانتهاء من الإنشاءات .. نظم لهم البرنامج التدريبي الذى تبنته سعاد عوف .. كما أعدت فصولا دراسية لهم .. كما تم علاج جراحهم والقيام على نظافتهم مما علق بهم من قاذورات أثناء تواجدهم بالشارع، خلال هذا تذكرت سعاد ما كانت تقوم به فريدة زوجة الطاهى بعد عودتها من قريتها فتقوم بعملية النظافة تلك ونظرا لأنها جربت ما تشاهده الآن وما تشاهده بأنه حقيقة واقعة ولها آثار إيجابية على هؤلاء التعساء وهى الأقدر على ملاحظة تلك الأشياء وتتبعها.

تأكد المشرفون على المدرستين أن جميع الأولاد والبنات لديهم قد أصبحوا أحسن حالا كما شعر أصحاب المشكلة وهم أطفال الشوارع أيضا بذلك .. فلقد أصبحوا غير مطاردين وينامون فى أماكن نظيفة ويجدون الرعاية الصحية والاجتماعية وكان لتدخل رجال الدين والعلاج النفسى لفريق الأطباء الذين يقومون على علاج هذه الفئة البائسة اليائسة أثر فعال فى عودة الهدوء النفسى لهؤلاء المعذبين من حالات التوتر التى صاحبتهم قبل ذلك وأدت إلى إلقائهم بعرض الطريق.

أثناء ذلك ناقش مجلس الشعب مشروعا بقانون لعلاج تلك المشكلة وتنص أحد بنوده على اعتبار أولياء أمور هؤلاء المتسربين من داخل الأسر إلى الشارع شركاء فى تلك الجريمة ويقدموا للمحاكمة طالما لم يبلغ عمر أى أحد من المشردين الثامنة عشرة، بل على ولى الأمر الإبلاغ عن أى طفل أو طفلة هرب من منزله أو المدرسة كما ينص القانون على أن يقوم رجال الأمن بجمع هؤلاء المشردين وإرسالهم إلى أماكن محددة لهذا الغرض بجميع محافظات الجمهورية لعلاجهم صحيا ونفسيا مثل ما تم فى المشروع الفرنسي رغم أنه حتى الآن لم تظهر نتائجه بعد، وأصبح من الملاحظ أن مدينة المنصورة بل المحافظة كلها قد شعرت باختفاء هؤلاء المشردين من الأماكن الموبوءة التى كانوا يلجئون

إليها كما شدد القانون على عقوبات التسول والالتفاف حول التشريع باستخدام هؤلاء فى أغراض أخرى على أن تقوم الأجهزة المسئولة بإبلاغ العائلات بكل البيانات عن أبنائهم أو بناتهم المتغيبين كى يطمئنوا عليهم.

***

كل الأمور كانت تسير حسب الخطه وأصبحت سعاد وزميلها يحيى يلتقيان مرات كثيرة بعد أن ربط الحب والتفاهم بين قلبيهما ووافق مسيو موليه على انضمام يحيى إلى المشروع كمسئول ومشرف على العلاج الطبي والنفسى لهؤلاء المشردين.

إلتقيا كثيرا وحدثت زيارات متبادلة بين الحبيبين، قامت سعاد بزيارة منزل أسرة يحيى وتعرفت عليهم وتعرفوا عليها وبخاصة أم يحيى التى شعرت بسعادة كبيرة كما رافق يحيى سعاد إلى بلدتها عدة مرات وجلس معهم أرضا يتناول طعامه مع والديها بطريقتهم المعتادة وشاهد سعاد كيف تتعامل بهدوء ودون توتر مع أسرتها وباقي الجيران خاصة صديقاتها فاطمة وفكيهة وست أبوها تحدد موعد الزواج وإقامة الاحتفال ووافق كلّ من سعاد ويحيى على إقامة حفلين، الاول بالقرية لأسرتها وأهلها؛ الثاني بالنادي الرياضي بالمنصورة ويحضره باقى أصدقائهم ومنهم مسيو موليه وزملاء والديه بالجامعة وبالطبع أخبرت سعاد والديها الشرفيين فى فرنسا

بكل تلك التطورات والتى أسعدتهما كثيرا لكن مسيو "دوفان" كان يمر بظروف صحية حرجة ولم تشأ أمها جين أن تخبرها وتقلل من فرحتها.

عُقد القران فى المسجد الكبير بمدينة المنصورة وحضره عدد كبير من الأصدقاء للعائلتين وكان الطبل والزمر هو الفاتحة لهذا كما اصطفت السيارات أمام النادي وبجوارها الركايب"الحمير" التى أتت بها عائلة سعاد ومرافقوهم كما حضر العمدة هذا الفرح.

تم عقد قران كل من سعاد ويحيى وفى المساء اتجها برفقة الركايب الى القرية حيث أقيم هناك احتفال فى منطقة "الجرن" وهى منطقة متسعة بالقرية يقوم المزارعون بجمع محصول القمح بها لدرسه وتدريته لفصل الحب عن التبن وتعبئته فى هذا المكان الفسيح، حضرت الراقصات بالصاجات وأعد شربات الورد الأحمر ووزع الملبس والشيكولاته وكان هذا وقت موسم الربيع وأشجار الجميز تنتج الكثير وجمعوا منه ووزع على البعض خاصة الأغراب الذى أعجبتهم هذه الفاكهة المستوردة !!

انتهت السهرة وعاد الجميع إلى أماكنهم كما عادت سعاد إلى فيلتها السابقة التى كانت تقيم بها مع "ماما جين وبابا دوفان" بعد أن انتهت من إجراء بعض الإصلاحات لعدم رعايتها تلك الفترة الطويلة وستصبح عُش الزوجية للعروسين، صباح اليوم التالي

استيقظت سعاد أكثر نشاطا وحيوية سعيدة بسهرة الأمس رغم ما بها من سلبيات من اختلاف الأمزجة والطباع لكن هؤلاء أهلها ويجب تحملهم فهم مرغمون على تلك التصرفات النابعة من الحب لها ولزوجها ..

اقبل بواب الفيلا ليخبرها بوصول تلغراف خاص بها قادم من الخارج، استلمت منه التلغراف لتفضه فى عجالة وهى تعلم أن "ماما وبابا" يرسلون لها بتهنئتهم، قرأت سطوراً حزينة ترسل بها "ماما" تنعى لها "بابا" مسيو دوفان، انهمرت الدموع من عينيها شديدة قوية وشعرت بأن العطف والحب قد وليا عنها بوفاة الرجل الذى كان أبا حانيا وعطوفا عليها وقدم لها كل شيء وإذا نسيت "ماما" شيء ما يصبح هو المنبه لها، بل أنه كثيرا ما يكون عائدا من خارج الفيلا حاملا لها الحلوى وهى طفلة صغيرة وحين نمت ونضجت كان يشترى لها بعض أغراضها ولم يكن يبخل عليها بأى شيء.

أمضت هذا اليوم فى الفيلا تستعيد ذكرياتها معه، مضى أكثر من عشرين عاما ولم تنس أنه فى العام الماضى اخبرها بأنه يوم زواجها سوف يقوم بالرقص "عشرة بلدى" وقد أضحكها هذا التعبير وشعرت أنه مصمم على هذا محاولا الإمساك بالعصا بينما سعاد تدير له أغنية فريد الأطرش "زينة" من أجل أن يرقص عليها

ضحكت منه زوجته طالبة منه أن يقدم أى شيء آخر فأكد لها أنه سوف يقوم به وعلم من الناس فى المنصورة بأن بعض الآباء الذين يحبون بناتهم حبا شديدا ويوم زواجهن يفضلون أن يقدموا تلك الرقصة لهن مؤكدا لزوجته وسعاد بأن معناها "عشرة رقصات فى وقت واحد".

ضحكت سعاد من حديثه وتسائلت من أين اتي بهذا الكلام؟ ليست عشرة رقصات ولكنها رقصة واحدة وهذا اسمها فقط، ضحك قائلا:

- مس مهم سؤاد .. انا ارقص عسره بلدى عسرين بلدى مس مهم .. المهم أن هبيبة كلبى سؤاد يكون مبسوط كتير.

ما زالت تبكى وتتذكر بأنه لم ينجبها وتعود بذاكرتها للماضى بأن هذا الرجل ليس جارا ولا قريبا ولا من نفس ديانتها ورغم هذا فهو كائن حى يحمل قلبا مُحبا بريئا يسع ألاف البشر.

اتصلت سعاد بيحيى لتخبرة بوفاة الأب الروحي لها وأنها سوف تسافر إلى باريس صباح باكر لتقف مع أمها جين .. حاول مرافقتها فأقنعته بأنه من غير اللائق أن تكون المقابلة الأولى مع أمها فى مثل هذا التوقيت الحزين واقترحت تأجيل الزيارة والتعارف إلى ظرف أحسن من هذا التوقيت .. أخبرت مسيو موليه أيضا الذى حزن على والدها كثيرا ..

وصلت سعاد إلى فيلتهم بتولوز وقامت بطرق بابها وقامت جين بفتحه لتشاهد ابنتها سعاد أمامها فاحتضنتها باكية وسعاد تبادلها البكاء، حاولت جين أن تقلل من حزن سعاد على أبيها ظلت سعاد مع جين أسبوعا ثم قررت العودة إلى مصر بعد أن استطاعت إقناع جين بأن تصحبها والتى كانت تعبر دائما عن مشاعرها بالحنين للعودة لمصر والحياة فيها والتى تذكرها بفترة شبابها، وصلت جين وابنتها سعاد إلى فيلتهم واستقبلهم عم صالح البواب والمسئول عن الحديقة.

اليوم التالى ودعت سعاد أمها متجهة إلى عملها، لقد فوجئت بنبأ الإنتهاء من إنشاء المبانى الخاصة بعنبر التصنيع لكل من الفتيان والفتيات كما أن إنشاءات مبني الإعاشة لم يتبق على الانتهاء منها سوى شهرين، إلتقت مع مسيو موليه الذى قال لها:

ـ سعاد؛ لقد اتصلت بشركتين أثناء فترة حزنك على والدك وسوف ترسل الشركتان بخبراء لها خلال هذا الأسبوع للبدء فى تنفيذ الإنتاج الفعلي للمشروع، الشركتان هما "مولينكس" لصناعة الأدوات الكهربائية وشركة "موفيك" لصناعة دراجات الركوب سيكون نشاطهم فى المراحل الأولى للمشروع التركيبات فقط؛ شعرت سعاد بسعادة غامرة وأخبرت مسيو موليه بأن حفل الزفاف سيقام بعد أسبوعين.

أثناء تلك الفترة توطدت علاقة سعاد بالأطفال والصبية التى تم جمعهم من الأزقة والشوارع ومن أسفل الكباري ووصل عدد الصبية الى ما يقرب من مائة وخمسة وأربعين والفتيات الى خمسة وستين .. شعر هؤلاء الصبية والفتيات بأن الله أرسل لهم بأخت كبيرة ترعاهم وتبحث عن مصالحهم وخلال الشهور الثلاثة الماضية استطاعت سعاد ومعاونوها العمل على تهذيب سلوكهم للأحسن حيث كان لرجال الدين الأثر الطيب عليهم كما كان لرجال علم الاجتماع وأطباء العلاج النفسى الأثر الفعال معهم فقد أشعروهم بأنهم بشر أسوياء وليسوا مجرمين أو مطاردين من المجتمع خاصة بعد أن تم الاتصال بأهليهم الذين حضروا لزيارتهم وابدوا رغبتهم بعودتهم مرة أخرى والانضمام لأسرهم ورغم أن تلك العودة لم تتم ولكن هذا العرض أعطاهم الراحة والسعادة البالغة بأن من قام بطردهم أصبح راغبا فيهم الآن.

***

مضى اسبوعان وأقيم زفاف رائع على ضفاف نهر النيل وشعرت جين بأن حلمها قد قارب على التطبيق وهى التى كانت تمنى نفسها بمشاهدة تلك الليلة خاصة بعد اختطاف سعاد منذ ما يقرب من العشرين عاما .. سافر العروسان لقضاء بعض الوقت على ضفاف البحر الأبيض متخيرين مصيف رأس البر الهادئ

قضوا بها عشرة أيام ممتعة ولولا اتصال من مسيو موليه طالبا منها العودة لوصول وفد الشركتين الفرنسيتين والتى يجب أن تكون فى استقبالهم لطالت فترة الأجازة .

عقد مسيو موليه اجتماعا للوفد الفرنسى الذى يمثل شركتين من الشركات التى كلفتهما الحكومة الفرنسية بالمساهمة فى مشروع تأهيل وتشغيل الفتية والفتيات الذين وقع عليهم الاختيار ويخضعون منذ عدة أشهر لبرنامج تدريبي وتأهيلي فى مدرستين من مدارس محافظة الدقهلية .. لقد قطعوا شوطاً كبيراً فى العلاج النفسى والاجتماعي كما أثمرت دروس الإرشاد الدينية التى أسهم بها كلٌ من الأزهر الشريف والكنيسة بنتيجة رائعة، لقد شعروا بأنهم مواطنون عاديون ومن أبناء مصر ولا يجب عليهم الانعزال أو الانطواء وأن العلم والتعلم هما عامل حاسم كى يصبحوا ضمن أفراد الشعب متبعين تعاليم الدين والأخلاق والعرف والقانون، أيضا كان لعودة الكثير من العائلات لزيارة أبنائهم وبناتهم الأثر النفسى عليهم، فقد أشبعهم هذا كثيرا ولملم الكثير من الجراح النفسية التى ألمت بهم بعد أن لفظتهم تلك العائلات.

أصبح البعض من الذين تحت التجربة مواظبا على العبادات والكثير منهم حفظ بعض آيات من الذكر الحكيم وأصبحوا مستعدين لتلقى التعليم والتدريب المهني ليصبحوا منتجين وأصحاب مهن تدر

عليهم بعائد يتقاضونه وينفقون منه على أنفسهم مثل باقى أبناء المجتمع.

كان للجمعيات النسائية بالمنصورة أثره على الفتيات اللائى تعرضن للاغتصاب وانتهاك اعراضهن فلقد أعادت إليهن تلك الجمعيات الثقة بالنفس وأنهن مجني عليهن ولسن جانيات وهذه الجمعيات مكونة من عضوات وهن سيدات ذات مستويات اجتماعية راقية وكن يتقلدن مراكز سابقة فى الجامعات أو اجهزة الدولة.

عم الارتياح لدى الفتيات بأن ما تم لهن خارج عن إرادتهن وأنهن الآن فتيات صالحات وسيصبحن زوجات وأمهات وعليهن الانخراط فى المجتمع وأن ما حدث لهن هو درس عملي وفعال بألا يقتدوا بمن سبقوهم من العائلات فى التعامل مع المشاكل بإلقاء أبنائهم فى عرض الطريق بل من الواجب عليهم بأن يصبحن قدوة لأبنائهن وبناتهن ..

***

كان الوفد الفرنسي مكون من شركتين .. الأولى "موفيك" لصناعة الدرجات والثانية شركة "مولينكس" لصناعة الأدوات الكهربائية كما أرسلت شركة "بيج" لصناعة الأقلام الجافة وأدوات الكتابة بخطاب باستعدادها للمساهمة فى هذا المشروع الانسانى

درست الشركتان الأسلوب الأمثل للمساهمة فى هذا المشروع والذى يهدف للصالح الاجتماعي لهؤلاء المظلومين من عائلاتهم كما يهدف إلى الربحية كى يساعد على الإنفاق على نمو هذا المشروع الاجتماعي التربوي.

حددت لشركة "موفيك" أن تعمل بها الفتية حيث تصل منتجات الشركة إلى مصر عن طريق البحر ويقوم الفتية وبمساعدة من الفنيين الفرنسيين بتلقي التدريب على كيفية تركيب أجزاء تلك الدراجات حتى تصبح وحدة كاملة وستقوم الشركة بالإضافة إلى توفير الخامات والأجزاء بعملية التسويق التجاري فى مصر وشمال أفريقيا، أما شركة" مولينكس" فسيعمل لديها الفتيات لأن هذا العمل لا يحتاج إلى قوة عضلية مثل الأولى كما أنه دقيق ويتلاءم مع تكوينهن.

لم يتبق إلا ايام قليلة ويتم تسليم المباني سواء الخاصة بالإعاشة أو الإقامة أو مباني التركيبات وكل هذه المشاريع ستشرف عليها سعاد عوف يعاونها بعض المتخصصين سواء من المصريين أو من الفرنسيين .. سعاد ومسيو موليه فى منتهى السعادة بأن الحلم قد اقترب بأن يصبح حقيقة خاصة بعد التطور الذى حدث فى سلوك وأخلاق أولئك المظلومين بل وصل هذا إلى المظهر العام للفتيات والفتيان وأصبح هناك فارقا شاسعاً عما كانوا

عليه منذ خمسة أشهر وبين حالتهم الآن، فقد أصبحوا مُعدين إعدادا كاملاً للإنتاج والعمل كما أن طريقة التحدث السوقية والسيئة التى كانت منتشرة بينهم تلاشت وبخاصة التدخين وممارسة الجنس بينهم.

تمت جميع التركيبات للشركتين وأصبح أصحاب التجربة خاضعين للتدريب العملي غير مصدقين بأنهم سيعملون عملا شريفا مربحا، مازال كلّ من سعاد ومسيو موليه يوالون الاتصال بمنظمات حقوق الإنسان ورجال الأعمال المصريين لتكوين اتحاد يشمل هؤلاء المشردين بالشوارع لنحمى الوطن من خطرهم حتى لا يصبحوا بؤرة فساد وضرر كما حدث ويحدث مع عزبة القرود .. "ماما جين " تتابع ما تقوم به سعاد وتعاونها بتجميع عائلات الجالية الفرنسية خلفها لتشد من أزرها وتقدم لها يد المساعدة اللازمة فى أى وقت تحتاجه.

***

الحياة الاجتماعية للزوجين سعاد ويحيى تسير سيرها المعتاد واسعد هذا والديّ يحيى وهما ينظران إلى ابنهما وهو سعيد مع زوجته وتلاشى كل ضيق وخوف من عائلة سعاد الذين لم يتسببوا فى أى مضايقة لهما من بعيد أو قريب بل آثروا الابتعاد ينتظرون تعطف ابنتهم عليهم بالزيارة والمودة وفى المقابل لم تبخل سعاد

على عائلتها وعلى ذويها بل وجيرانها بأى شيء تستطيع من خلاله تقديم يد العون لهم أو المساعدة الواجبة أو المفروضة.

***

مضى عام على قيام المشروع وأقيم احتفال حضره المسئولون بالمحافظة كما تجمع عدد كبير من رجال الأعمال من مساهمى الخير الذين يبتغون رضاء الله تعالى وأن يكون لهم فى الدنيا والآخرة نصيب من عمل الخير ومازالوا يواصلون لقاءاتهم ويبلورون الاتحاد المنشأ والغرض من إقامته والمساهمات المطلوبة من كل واحد منهم حسب قدراته، وصل عدد الأعضاء المنتسبين من رجال وسيدات الأعمال لهذا الاتحاد حتى الآن إلى ما يقرب من مائتين وسبعين رجل وسيدة وانضم إليهم بعض الأجانب الذين لهم استثمارات فى مصر ولتشجيع هذا العمل تقدمت وزراه المالية بالتعاون مع مجلس الشعب بقانون لفتح مجال المشاركة الأكبر والأعم أمام الكثيرين وتشجيعهم بتجنيب المساعدات المدفوعة من أرباح شركاتهم وبالتالي لن تدفع عنها ضرائب وسوف يصب هذا فى صالح المشروع.

بمساعدة كل الأجهزة السابقة حددت أماكن لمثل تلك الحالات فى بعض محافظات الجمهورية خاصة فى القاهرة الكبرى والإسكندرية وبعض محافظات الصعيد وكان باديا للجميع الأثر

الطيب الذى تركه قيام مثل هذا المشروع حيث انخفضت إلى درجة كبيرة نسب تواجد الأطفال المشردين والمنتشرين فى الأماكن القذرة الموبؤة، بل كان البعض منهم يتجه من تلقاء نفسه أو بمساعدة أصدقاء أو أقارب لهم إلى تلك المراكز عندما يشعر باضطهاد من ذويهم كما قامت أجهزة الاعلام بنشاطها المحمود للتوعية والتوجيه لمثل تلك الحالات لدرجة أن بعض المواطنين أصبحوا يساعدون هؤلاء الأطفال الضالين باصطحابهم إلى تلك المراكز، بالإضافة إلى سن قانون يحرم على الأب أو الأم أو الاثنين معا طرد أبنائهم أو عدم العناية بهم حتى يضمن المجتمع عدم العبث بحياة واستقرار أطفالهم بل اعتبرهم القانون مجرمين يهددون أمن الوطن اجتماعيا.

**ودارت الأيام** ومضى على قيام المشروع عشرة أعوام واصبحت الأجيال الأولى مهنيين ممتازين ويعملون الآن وقد حصدوا الأرباح كنتاج عملهم وكان هذا ربحا ماديا كفل لهم حياة معقولة وآمنة وتزوج الكثير منهم سواء من نفس الفئة أو من أقارب لهم فى قراهم ومدنهم التى نبذتهم فيما مضى، توسعت الشركات الفرنسية من مساهمتها فى هذا العمل الانسانى والاستثماري فقدمت شركة "مولي نكس" للصناعة خلاطات المطابخ والأدوات الكهربائية من راديوهات ومكاوي كهربائية وحلل ضغط للبخار خطوط إنتاجية

أكثر استوعبت عددا كبيرا من نفس تلك النوعية كما قامت شركة "ركسيل" للأدوات والكابلات الكهربائية بحذو نفس طريق من سبقوها وشركة "تيفال" وبعض الشركات الأخرى لدرجة ان تلك المراكز أصبحت تنافس مراكز التدريب المهني القديمة لانها سلكت طريقين هامين.

الاول : التربوي التعليمي

الثانى : الانتاجى المربح

أصبحت الأماكن التى كان يتجمع فيها مثل هؤلاء الضالين فارغة إلا من القليل الذى رفض التقيد بمثل تلك الأعمال ورغب بأن يكون هائما على وجهه فى الشوارع والطرقات وكانت قوات الأمن تتصدى لهم بأن تحملهم قسراً إلى دور الرعاية النفسية للعلاج ..

***

اقتربت سعاد من عامها الثامن والخمسين واصبحت أما وجدة بعد أن تزوجت ابنتها "جين" وأنجبت كما أن ابنها دوفان هو الآخر على وشك التخرج من الجامعة ولاقت أمها سنية ربها اثر عركة مع بعض سيدات القرية وقذفتها إحدى الشابات بحجر اصطدم برأسها فماتت على الفور أما والدها عوف فقد سبقها بعدة أعوام ولم يتبق من عائلتها سوى أبناء إخوتها حيث توفيت جميع

شقيقاتها وأخوها بسبب انتشار الأمراض كما توفيت أمها جين منذ عشرة أعوام لكن سعاد مازالت يانعة جميلة قوية أما زوجها الدكتور يحيى فقد أصبح أستاذا للصحة النفسية بجامعة المنصورة .. ومازال مركز دوفان الاجتماعي للصناعات الخفيفة وهذا هو الاسم التى اختارته للمراكز الفرنسية التى أثبتت كفاءتها ومضى على إنشائها حوالى عشرين عاما منذ بداية عمله قد أسبغ هذا على المجتمع المصرى كل الخير ولملم العديد من ضحايا الاضطهاد العائلى والتفكك الأسرى من الشوارع وقدم إليهم الحماية والأمان من أن يصبحوا مجرمين على قارعة الطريق أو ينشؤا تجمعات أخرى مماثلة لعزبة القرود.

قامت سعاد بزيارة مقلب المنصورة التى اختطفت فيه فى الماضى والتى نشأت به عصابة عزبة القرود وأسعدها أن يتحول المقلب إلى حديقة عامة يرتادها الأطفال وعادت بذاكرتها إلى الماضى منذ خمسين عاما وقت أن كان عمرها سبع سنوات وهى تنام فوق كرتونة أو بعض بقايا القمامة كما كانت تزودهم لواحظ زوجة المعلم حنفى أبو ركبة بالخبز الموجود فى المقلب ليأكلوه وتكلف احدى زوجتيه الاخرتين بإعداد حلة فاصوليا قرديحى "دون لحوم" ولم تنس أبدا كلبتها المخلصة.

عادت سعاد إلى فيلتها سعيدة تستعيد شريط ذكريات خمسين

عاما، تتذكر "ماما وبابا" وتقول الله يرحمهم .. مش مصريين ولا مسلمين لكنهم بشر حقيقى ولولا ما قاموا به معى لما كنت الدكتورة سعاد الحاصلة على الدكتوراه من جامعة السربون فى مجال التنمية البشرية والقي بمحاضرات وأعين من قبل السكرتير العام للأمم المتحدة كمستشار لليونسيف" بدرجة سفير وأتجول فى العالم أساعد وأقدم العون للمحتاجين؛ لم ينجبانى لكن دون ما قاما به معى من مجهود ورعاية لبقيت مثل صديقاتي جدة لعشرين من الأحفاد وأما لتسعة من البنين والبنات واجلس فى قريتي ومنزلي المتواضع احمل أمراضا وكل ما قدمته للبشرية والوطن هو زيادة أعداد المصرين غير المؤثرين فى المجتمع المستهلكين، أنهم المصريون الذين إذا وجدوا العناية والاهتمام لصالوا وجالوا فى بلادهم وخارجها.

لابد أن أحذو حذو "ماما وبابا " وأن أقدم منحا دراسية لكل نابه فى قريتى وأكرس جزءا كبيرا من وقتى لهم، فمن الواجب علىّ أن أضاعف العدد ولأبدأ بالعشرة الأوائل فى محافظة المنصورة وأقدم منحا دراسية فى مجالات عدة كى تتعاظم المنفعة وليصبحوا قدوة وليقتدوا بالسابقين مثل ما أنا أريد أن اقتدى بهم أيضا.

عاد يحيى من الجامعه وبعد أن تناولا طعامهما أخبرته بما قررته وأسعده هذا قائلا أن هذه هى الصدقة الجارية التى ستفيدك فى الآخرة وسيضاف هذا إلى علمك الذى أفدت به البشرية وإلى

أبنائك الذين سوف يدعون لك بالصحة والسعادة، بارك الله لك فى خطواتك وسأنضم إليك ولنصبح مثل "ماما وبابا" حينما اندفع الاثنان لرعايتك وليصبح هذا نبراسا لكل إنسان قادر على العطاء لقد كان الصحابة الأجلاء يقومون بتعليم من لا يعرف القراءة والكتابة فنحن أمة العلم والتعلم وليست الكسل والجهل.

مضت خمسة أعوام والجيل الاول الذى تبنته سعاد وزوجها تخرج من جامعة المنصورة بتفوق وعينوا جميعا معيدين بكلياتهم لتفوقهم وهكذا ستبنى أول لبنة فى صرح العلماء المصريين المجدين على يد تلك الفتاة البسيطة ابنة الريف والتى تبنتها إنسانة وليكن لها أى اسم وأى دين ولكنها مع زوجها راعوا الله فيها ولم يبخلوا عليها بالعمر والصحة والمال وكل إنسان يُقيم بما قدمه للفرد والمجتمع ورحم الله الجميع ووفقها للسير على هذا النهج العظيم.

شعرت سعاد بأنها متوعكة الصحة والمزاج خاصة أن الفيلا أصبحت فارغة لزواج الأبناء والبنات كما أن زوجها فى بعثه علميه بالخارج لمدة أسبوع، شعرت بالوحدة وتذكرت أمها "جين" حينما كانت تشعر بتلك الوحدة مما إضطرها إلى طلب طفلة تقوم على تسليتها وتبعد عنها هذا السكون وشاء الله أن تكون سعاد عوف.

تنهدت ونظرت إلى الشارع الهادئ الخالى من المارة صباح يوم الجمعة وشعرت بأن النعاس يغالبها لكنها تنبهت على صوت لم

ولن تنساه، صوت شاب ينادى "الخس اللوز" .. إضطربت وازداد عدد ضربات قلبها وتورد وجهها بالسعادة وتذكرت الأيام الماضية وهى طفلة صغيرة، وقفت تشاهد البائع .. شاب قروى يشبه أباها فى الهيئة والطيبة حتى إنها إعتقدت بأن الزمن قد عاد بها خمسين عاما .. طلبت من حارس الفيلا إحضاره .. حضر الشاب باشا فى وجهها، تحدثه ويجيبها بكل ثقة وكان باديا عليه الصحة وحُسن الهندام .. سألته عن إسمه وأجاب .. إسمى "عرفه" إبتسمت قائلة .. عوف إنه إسم جميل .. ضحك الفتى ليعيد ذكر إسمه .. عرفه يا ست هانم .. ابتسمت له واخرجت مبلغا من المال لتعطيه له، اندهش متسائلاً: لماذا هذا المبلغ؟ أنا والحمد لله أعمل والله يرزقنى ولا أحتاج صدقة أو مساعدة .. سيدتى إننى أعمل هنا ولقد عاصرت رجلاً طيباً وأنا طفل صغير كان يبيع الخس فى هذا الحى وينادى على بضاعته مثل ما أنادى عليه الآن .. أنا أقتدى بهذا الرجل والذى يتذكره كل أبناء جيلى .. هيه .. الله يرحمك يا عم عوف .. قفزت بعض قطرات دموع من عينيها وشكرته فغادر الفيلا عائدا الى عربته وإلى حماره .. اتجهت إلى الحمام وتوضأت وصلت ركعتين شكراً لله وترحما على آبائها وأمهاتها "عوف وسنية" وجين ودوفان .. وسمعت النداء من على بعد "**الخس اللـووووز**"

***تمت بحمد اللـه***

## من إصـدرات المؤلف:

* الناس والحـــرب .. الطبعة الثانية مـــايو٢٠٠٩
* رسالة إلى الرئيس .. الطبعة الثانية يونيـــو ٢٠١٠
* مصر التـــــي .. الطبعة الرابعة نوفمبر ٢٠١٣
* نص نقـــــل .. الطبعة الثانية يولـــيو ٢٠٠٩
* مسافرٌ زاده الخيال... الطبعة الثانية سبتمبر ٢٠١٢
* حورية بين النخيل .. الطبعة الثالثة نوفمبر ٢٠١٣
* الحب والحرمـــان .. الطبعة الثانية نوفمبر ٢٠١٣
* همســـات مصرية
* صوت المـــلاك
* بنت الباشـــــا .. الطبعة الثانية نوفمبر ٢٠١٣
* بثينـــــــــه
* عابد المصـــرى
* رحلة الألف يـــوم
* نسمة على النـيل ٢٠١٥
* لقاء في الطـــائرة
* الجميلة والأســير ٢٠١٦
* العصـــفور وأنا ..
* رجاله ورق للبيـــع
* أيام من عمـري
* فـــهد اللـــيل
* نـور العيـون
* ايزيـس ٦٧

رقم الإيداع بدار الكتب المصـــرية

٢٠١٧/١٤٥٢٦